أمثال القرآن

تفسير وبيان

جمع وترتيب
عبد المحسن التوارجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الكبير المتعال الذي تنزه عن كل نقص ومحال واتصف بكل كمال وجلال وترفّع سبحانه عن الأشباه والأمثال:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله خاتم النبيين والمرسلين وإمام العلماء العاملين وسيد الأولين والآخرين والمبعوث رحمةً للعالمين ﷺ وعلي آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

أما بعد...

فإن الله تعالي ضرب في القرآن أمثالاً كثيرة للحق والباطل فقال تعالي:{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ} [الرعد: ١٧]، أي إذا اجتمعا كالماء وزبده والذهب وخبثه فالباطل لا دوام ولا ثبات ولانفع له تماماً كخبث الذهب والفضة وزبد الماء فإنه يذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس من الحق والهدى واليقين والعلم النافع فيمكث في الأرض كالماء العذب الذي سلكه الله ينابيع في الأرض قال الله تعالي:{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧]، قال بعض السلف الصالح: (كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت علي نفسي لأن الله تعالي يقول:{ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣]، ففهمُ أمثال القرآن علمَ يجب طلبه وتعلمه وتعليمه للناس من باب نشر العلم وعدم كتمانه.

معنى المثل:

المثل صورة حسية وتشبيه تمثيلي يجسد المعنويات والمعقولات في صورة محسوسات تراها العين وتدركها الحواس لتجلية المعاني وتوضيحها للناس حتى صارت بعض هذه الصور مثلا سائرا يُضرب في المواقف المشابهة.{كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا} [الجمعة: ٥]،{كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ} [الأعراف: ١٧٦]،{كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً} [النور: ٣٩] وغير ذلك من الأمثال.

وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيما في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق؛ ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه.

الغرض من ضرب الأمثال:

يقول الله تعالى:{وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١]، ويقول تعالى:{وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥]، فالغرض من ضرب المثل في القرآن هو التفكر والتدبر والتذكر والاعتبار فضلا عن كشف الحقائق وتوضيح الأمور التي قد تخفى على الناس بصورة مادية محسوسة ملموسة ليفهمها الناس ويدركوها.

ولله المثل الأعلى:

الله تعالي يضرب لمن يشاء ولما يشاء من خلقه ما يشاء من الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ولكن ليس لأحد من عباده أن يضرب له سبحانه الأمثال لأنه سبحانه وتعالي منزّه عن المثيل والشبيه والنِّد

والنظير: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، {وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [الروم: ٢٧]، أي له الكمال المطلق من كل وجه ولذلك نهانا سبحانه عن أن نضرب له الأمثال فقال عز من قائل: {فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٧٤].

أمثال القرآن:

القرآن حافل بالأمثال العديدة، وسوف أتناول بعون الله وتوفيقه أمثال القرآن مرتبة حسب ورودها في سور القرآن الكريم.

* * *

المثل الأول

كمثل الذي استوقد ناراً

المثل الأول:
كمثل الذي استوقد نارا

والآن مع أول مثل ورد في القرآن، يقول الله تعالي عن المنافقين:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٧ - ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين ما نصُّه:

(وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلي العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها... فبينما هو كذلك إذ طُفئت ناره وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلي ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عِوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشاد، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، وقال الرازي: والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، وقال تعالى:{ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ} أي أذهب عنهم ما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرُّهم وهو الإحراق والدخان{وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ} وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق،{لَّا يُبْصِرُونَ} بسبب ضلالتهم وعماية بصائرهم، كما قال

تعالى:{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

قال تعالى:{ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} ولم يقل بضوئهم، لأن هذا النور ليس ذاتياً لهم وإنما اكتسبوه من الإيمان الذي تلبسوا به أولاً، كما أن نور القمر مكتسب من الشمس وليس ذاتياً كضوئها، ولذلك قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا} [يونس: ٥]، فهؤلاء المنافقون أطفأوا نور الإيمان بنفاقهم فعاشوا في ظلمات النفاق والشك والكفر ليسوا بخارجين منها فقال الله تعالى:{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾} [الأنعام: ١٢٢]، هذا، والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الثاني

كصَيِّبٍ من السماء

المثل الثاني:
كصيّب من السماء

فهذا مثل آخر ضربه الله تعالي للمنافقين:

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ } [البقرة: ١٩ - ٢٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين، وهو قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكُّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم{كَصَيِّبٍ } والصيِّب: المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق، و{وَرَعْدٌ} وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالي:{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: ٤]، وقال تعالي:{وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾} [التوبة: ٥٦]، - أي يخافون ويفزعون -.

والبرق: هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، ولهذا قال تعالى:{يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ } أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، ثم

قال تعالى:{ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ } أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، قال ابن عباس:{ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ } أي لشدة ضوء الحق{كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟} أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وإذا عرضت لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين، وعن ابن عباس: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به علي استقامة فإذا ارتكسوا منه إلي الكفر قاموا متحيرين.وهكذا يكون يوم القيامة عندما يُعطـَى الناسُ النورَ بحسب إيمانهم، فمنهم من يُعطـَى من النور ما يضيء له مسيرة عشرات الأميال وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يُطفأ نورُه تارة ويُضيء أخرى، ومنهم من يمشي علي الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يُطفأ نوره تماماً فيتخبط في الظلمات وهم الخُلـَّص من المنافقين الذين يقولون للمؤمنين يوم القيامة:{ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا} [الحديد: ١٣]، أما المؤمنون فإنهم: {نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} [التحريم: ٨]، يقول تعالي:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ}.

قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة علي كل شيء في هذا الموضع لأنه حذّر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلي إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلي أن هذين المثلين الأول والثاني مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون (أو) في قوله تعالي{ أَوْ كَصَيِّبٍ } بمعني الواو أو تكون للتخيير، أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت فبهذا، وقال القرطبي: (أو) للتساوي، فعلى قوله يكون

المعنى: سواء أضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

وقال ابن كثير: فجعل هذين المثلين لصنفين من المنافقين أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفين من الكفار: الدعاة والمقلدين في قوله تعالى{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ} [النور: ٣٩]، إلي أن قال:{أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ} [النور: ٤٠] الآية، للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع والمقلدين، وسيأتي الكلام عن المثلين من سورة النور في حينه إن شاء الله تعالى.

* * *

المثل الثالث

بعوضةً فما فوقها

المثل الثالث:
بعوضة فما فوقها

يقول الله تعالى:

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾} [البقرة: ٢٦].

قال السُدّي:

لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين - يعني قوله تعالي{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، وقوله:{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ } [البقرة: ١٩]، قال المنافقون: الله أعلي وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة:

لما ذكر الله تعالي العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} أي: إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيأً مما قلّ أو كثر وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ماذا أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله هذه الآية، ومعني الآية: أنه تعالى لا يستنكف، وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما بأي شيء كان صغيراً أو كبيراً.

(فما) هنا للتقليل أو نكرة موصوفة ببعوضة، ويجوز أن تكون (بعوضة) منصوبة علي نزع الخافض أي حذف الجار وهو هنا الإضافة بالظرف، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلي ما فوقها وهذا الذي اختاره الكسائي والفرّاء.

وقوله:{فَمَا فَوْقَهَا} فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة، كما تصف شيئاً بالصغر، فيقول السامع: نعم فهو فوق ذلك، يعني أصغر من ذلك وهذا قول أكثر المحققين.

والثاني:{فَمَا فَوْقَهَا} لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختاره ابن جرير، يؤيده ما رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله قال:«**ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة**»[(١)].

خبر سبحانه في هذا المثال أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذبابة والعنكبوت.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله،{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} لا يفقهون ولا يفهمون وعلي ربهم ينكرون ضرب المثل بالبعوضة، فقال تعالى فيهم{يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا}،{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} قال ابن عباس:{يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا} يعني

(١) رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة.

المنافقين{وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ } يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلي ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله،{وَيَهۡدِي بِهِۦ } يعني المثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم،{وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ } قال أبو العالية: هم أهل النفاق، وقال قتادة: فسقوا فأضلهم الله علي فسقهم.

{ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾}

[العنكبوت: ٤٣].

***

المثل الرابع

قلوب أقسى من الحجارة

المثل الرابع:
قلوب أقسى من الحجارة

يقول الله تعالى:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾} [البقرة: ٧٤].

هذا المثل موجه إلي بني إسرائيل توبيخاً وتقريعاً لهم علي ما شاهدوه من آيات الله تعالي ومعجزاته العظيمة، يقول الله تعالى{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ} كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ولا علاج لقسوتها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار حيث تلين وتتفتت أمام الأنهار الجارية، وإن منها لما يتشقق فينبع منه الماء وإن لم يكن جارياً، وإن منها ما يهبط من رأس الجبل خشية لله تعالى، فالمعني: وإن من الحجارة لما هو ألين من قلوبكم القاسية وأنتم تُدعون إلي الحق والإيمان فتعرضون.

وقد زعم أُناس أن إسناد الخشية والخشوع إلي الحجارة من قبيل المجاز، قال الرازي والقرطبي: ولا حاجة إلي هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، كما أسند إليها الإشفاق في قوله:{فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: ٧٢]، وكما أسند القول والإتيان والطاعة إلي السماوات والأرض في قوله:{قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} [فصلت: ١١]، وأسند السجود للنجم والشجر في قوله:{وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [الرحمن: ٦]، وأسند التسبيح إلي كل شيء حتى الجمادات في قوله:{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

{يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]، ومن لين الحجارة أنها تحب المؤمنين وتسلم علي رسول الله ﷺ كل ذلك علي سبيل الحقيقة لا المجاز، ففي الصحيح، قال رسول الله ﷺ عن جبل أحد:«**هذا جبل يحبنا ونحبه**» وفي صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ :«**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**».

وقد اختلف علماء اللغة العربية علي لفظة (أو) في قوله تعالي: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} بعد إجماعهم علي استحالة كونها للشك، قال بعضهم هي بمعني الواو، فيكون المعنى: هي كالحجارة وأشد قسوة، واستشهدوا علي ذلك بقوله تعالي:{وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، أي آثماً ولا كفورا، وبقوله:{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} [المرسلات: ٦]، أي ونذرا وقال آخرون: (أو) بمعني بل، فيكون المعني: هي كالحجارة بل أشد قسوة، ويؤيد هذا المعني قوله تعالى:{إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [النساء: ٧٧]، أي بل أشد خشية، وقوله سبحانه: { وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧]، أي بل يزيدون، وقال بعضهم: معني ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون كالحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها قسوةً.

قال ابن جرير:

ومعنى ذلك علي هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوةً، وبعضها أشد قسوةً من الحجارة ورجّحه ابن جرير، قال ابن كثير: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى:{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، مع قوله:{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩]، وكقوله:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [النور: ٣٩]، مع قوله:{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} [النور: ٤٠].

أي إن منهم من قلوبهم كالحجارة قسوةً، ومنهم من قلوبهم أشد قسوةً من الحجارة، هذا، وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن مثل حال بني إسرائيل الذين نزل فيهم هذا المثل، وحذرنا أن تقسو قلوبنا كما قست قلوبهم فقال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)} [الحديد: ١٦].

أي: أما آن الأوان للمؤمنين أن تلين قلوبهم عند ذكر الله واستماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع وتطيع، وتكف عن المعاصي وتقلع عن الذنوب التي تقسّيها وتُمرضها وتسوّدها بالران وتُصدئها بصدأ الغفلة والإعراض عن ذكر الله ولا يكونوا كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة.

وحتى لا نيأس من لين قلوبنا وخشوعها لذكر الله، فتح الله لنا أبواب الأمل فقال جل ذكره بعد آية المعاتبة السابقة مباشرةً من سورة الحديد: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)} [الحديد: ١٧].

فالله تعالى يليّن القلوب بعد قسوتها ويفرّج الكروب بعد شدتها، ويحيي الأفئدة بعد موتها كما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، الحكم العدل في جميع الفِعال الذي هو لما يشاء فعّال.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد: ٣].

* * *

المثل الخامس

الراعي الشفيق

المثل الخامس:
الراعي الشفيق

يقول الله تعالى:

{ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ } [البقرة: ١٧١].

هذا مثل آخر للكافرين و{ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ } [النحل: ٦٠].

قال القرطبي: شبّه الله تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو سيدنا محمد ﷺ بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءَه ونداءَه، ولا تفهم ما يقول هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه، والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، وقال ابن كثير: { وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ } أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها داعيها، أي دعاها إلي ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهم بل تسمع صوته فقط، والنعيق: زجر الغنم والصياح بها، يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً ونُعاقا ونَعقاناً. قال الأخطل: انعق بها يا جرير فإنك منّتك نفسك في الخلاء ضلالا.

هذا وجه، والوجه الثاني لبيان هذا المثل ساقه القرطبي وابن كثير قال الأخير: وقيل: إنما هذا مثل ضُرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا، واختاره ابن جرير والوجه

الأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئا لا دعاءً ولا نداءً، أما الغنم فهي تسمع دعاء الناعق ونداءه ولكن لا تفهم ولا تعقل ولا تدري ماذا يريد منها، يقول الله تعالى:{صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ} أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يقولون به، عُمْيٌ عن رؤية الحق وطريقه المستقيم،{فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ} أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه.

أقول: والدعاء للقريب والنداء للبعيد، قدّم الدعاء علي النداء، ليكشف مدى حرصه ﷺ علي هدايتهم فهو يدعوهم عن قرب ويتألفهم عن كثب كما يدعو الراعي غنمه وهي قريبة منه ليقدم لها الطعام والشراب ويصلح من شأنها، فإذا انصرفت وشردت بعيداً عنه، وأبت إلا الفرار منه وهو راعيها الشفيق ناداها بأعلى صوته وهتف فيها يحذرها الضلال ويخوفها الذئب، فلاتزداد منه إلا بعداً وإعراضا ولا تسمع إلا نداءً رفيقاً شفيقاً حانياً، ولكنها لا تفهمه ولا تعقله:{صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ} قال ﷺ :«إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» أي البعيدة الشاردة [1].

{وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾} [الإسراء: ٨٩].

* * *

(١) رواه أبو داود والنسائي عن أبي الدرداء.

المثل السادس

هن لباس لكم

المثل السادس:
هن لباس لكم

يقول الله تعالى:

{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ} [البقرة: ١٨٧].

هذه الآية وإن لم تكن مثلاً صريحاً، إلا أن المعنى يصلح أن يكون مثلاً، والمعنى: إن مثل نسائكم بالنسبة لكم كمثل اللباس الذي تلبسونه فيستركم ويجملكم ومثلكم بالنسبة لنسائكم كمثل لباسهن الذي يسترهن ويزينهن ظاهراً وباطناً، والمقصود باللباس في الآية السكن، فالرجل يسكن إلي زوجته ويشعر معها بالسكينة، والمرأة تسكن إلي زوجها وتشعر معه بالطمأنينة.

قال محمد بن علي الشوكاني في فتح القدير: وقيل إنما جُعل كل واحد منهما لباساً للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس، وقال: وجُعل النساء لباساً للرجال والرجال لباساً لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه.

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل:{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} [البقرة: ١٨٧]، استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة، ولمّا كان الرجل والمرأة يعتنقان - أي يتعانقان - ويشتمل كل منهما علي صاحبه شُبه باللباس.

قال الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى عِطفها ::: تثنت فكانت عليه لباساً

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور.

ولي في هذا المثل عدة وجوه للشبه بين الزوجين واللباس فضلاً عن الستر كما تقدم:

الوجه الأول: الدفء فكما أن اللباس يعطي الإنسان الدفء فكذلك كل من الزوجين يعطي صاحبه الدفء والحرارة، فالرجل بدون زوجة محروم من الدفء الحسي والعاطفي، والمرأة بدون زوج مفتقرة إلي الدفء وحرارة العاطفة، ولكي تدرك ذلك قارن بين رجل ينام في فراش وثير دافئ وعليه غطاء وثير يشع دفئاً وحرارةً، ورجل آخر يعاني البرد وآلامه لأنه ينام دون فراش دافئ وليس عليه غطاء دافئ، فمثل الرجلين كمثل المتزوج وغير المتزوج، ونفس المثل ينطبق تماماً علي المرأة.

الوجه الثاني: الانتقاء والاختيار، فكما أن الإنسان ينتقي ثوبه ويحسن اختياره، ويظل يبحث ويبحث عن الثوب المناسب نوعاً وملمساً وجودةً ولوناً وسُمكاً ليناسبه صيفاً بلطفه ونعومته ورقته، وشتاءً بدفئه وحرارته، وطولاً واتساعا حتى يغطي بدنه، كذلك كلٌ من الزوجين عليه أن ينتقي زوجه ويحسن اختياره لينعم بنعومته ولطفه ودفئه صيفاً وشتاءً وفي كل الأحيان.

الوجه الثالث: تبادل المحافظة ودوام المخالطة فإن الثوب يحفظ لابسه من العري وانكشاف السوءة، ويحفظه من حر الشمس وبرد الشتاء وصاحب الثوب أيضاً يجتهد في المحافظة عليه من الدنس

والوحل والقذر والتمزق حتى يظل أطولَ مدةٍ نظيفاً سليماً، وكلما اتسخ غسله، وكلما خلَق عاد إليه فلبسه، ولذلك سمي ثوباً لأن صاحبه يثوب إليه أي يعود إلي لُبسه وهكذا يجب علي الزوجين - وهذا شأنهما غالباً - أن يحافظ كل منهما على الآخر ويحفظه من كل ما يشينه، وكذلك كلما ابتعد الزوج عن زوجته أو ابتعدت عنه ثابت إليه وثاب إليها وتعانقا وتلابسا لا يستغني أحدهما عن الآخر كما لا يستغني الإنسان عن ثوبه أبداً.

الوجه الرابع: الزينة والجمال: إن الثوب يزين لابسه ويجمله، تخيل نفسك رجلاً أو امرأةً مشيت بين الناس بدون ملابس أو حتى رآك الناس مرة واحدة دون قصد منك عرياناً، فكم تكون قبيحاً مُنَفّراً، وكذلك الزوج بزوجته يكون جميلاً أنيقاً متعطراً متجملاً، وكذلك تكون الزوجة لزوجها ظاهراً بالتجمل والتأنق، وباطناً بالعفة والطهارة وغض البصر وإحصان الفرج.

أما الرجل بدون زوجة، والمرأة بدون زوج فحدث ولا حرج عن إهمال المظهر وتدنيس المخبر غالباً إلا ما رحم ربك، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:**«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[(١)].

* * *

(١) (رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود).

المثل السابع

نساؤكم حرثٌ لكم

المثل السابع:
نساؤكم حرث لكم

يقول الله تعالى:

{نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾} [البقرة: ٢٢٣].

الآية وإن لم تكن مثلا صريحا إلا أن معنى المثل متضمن فيها.

والمعنى: مثل نسائكم بالنسبة لكم كمثل الحرث بالنسبة للزارع، فشبّه سبحانه وتعالى أرحام النساء بالأرض التي تُحرث، ونطفة الرجل بالبذرة التي تُلقى في الأرض وشبّه الولد الذي يخرج من الرحم بالزرع الذي ينمو وينضج ويكبر من البذرة التي بذرها الرجل في حرثه، ولما كان الأمر كذلك وجب إتيان المرأة في قُبلها لا في دُبرها، لأن القُبل موضع البذر وموضع خروج الولد وهو الصمام الموصل للرحم موضع الحرث، أما الدبر فلا ينطبق عليه ذلك، فجعل الله تعالى من الفطرة السليمة والشريعة القويمة استقباح واستقذار بل واستهجان وتحريم إتيان المرأة في دبرها، ولذلك قال الله جلّ وعلا في الآية السابقة:{فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ} [البقرة: ٢٢٢]، أي في القُبل، قال الشوكاني في فتح القدير: لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القُبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يُلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذور التي منها النبات، وقوله:{أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ} أي من أي جهة شئتم من خلف وقُدّام

وباركة ومستلقية ومضطجعة إذا كان في موضع الحرث، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضون لنا محترثــاتُ ::: فعلينا الزرع فيها وعلى الله النباتُ

وإنما عبّر سبحانه بقوله:{أَنَّىٰ} لكونها أعم في اللغة من كيف وأين ومتى، أما سيبويه ففسرها هنا بكيف، وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلى أنّ إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروى مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول؛ فأنزل الله:

{نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ} فقال رسول الله ﷺ : «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» وروى الإمام أحمد عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ :«نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها» وفي رواية قال:«استحيوا إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن» وقوله تعالى:{وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ} أي من فعل الطاعات وترك المحرمات، قيل بابتغاء الولد، بالتسمية عند الجِماع، ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :«لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا»،«واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه» فيحاسبكم على أعمالكم{وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} الممتثلين لما أمرهم، التاركين ما عنه زجَرَهم.

❊ ❊ ❊

المثل الثامن

سنابل البركة

المثل الثامن:
سنابل البركة

يقول الله تعالى:

{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١].

هذا مثل ضربه الله تعالي لمن ينفق ماله في طاعة الله وفي مرضاة الله وفي الجهاد في سبيله لإعداد العدة وتجهيز الجيوش المسلمة المجاهدة لتكون كلمة الله هي العليا.

والمعنى: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع زرع في الأرض حبة، فأنبتت الحبة سبع سنابل{فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ} فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذرة، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة ثم قال تعالى:{وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ} يعني على السبعمائة، روى أبو حاتم وابن حبان وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر ﵄ لما نزلت هذه الآية:{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ} قال النبي ﷺ :«رَبِّ زد أمتي» قال: فأنزل الله:{مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [البقرة: ٢٤٥].

قال النبي ﷺ :«رَبِّ زد أمتي» قال: فأنزل الله:{إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

{وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ} أي بحسب درجة إيمانه واحتسابه وإخلاصه في إنفاقه في سبيل الله ومدى بعده عن الرياء والسمعة.

{وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} أي فضله أوسع وأكثر مما يُتصور، فلا يضيق عن أن يسع جميع خلقه ويزيد ويفيض، ويجازي المخلصين بسبعمائة ضعفٍ وزيادة، عليم بالمخلصين والمرائين خبير بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن فيه إشارة إلي أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

* * *

المثل التاسع

صفوان عليه تراب

المثل التاسع:
صفوان عليه تراب

يقول الله تعالى:

{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾} [البقرة: ٢٦٤].

أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة مَنْ راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه لا يريد إلا المدح والثناء وشكر الناس له إلي غير ذلك من المقاصد الدنيوية بقطع النظر عن الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، دون إيمان واحتساب؛ ولهذا قال:{وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ} ثم ضرب الله تعالي مثل مَنْ يمُن ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى، ثم مثّل هذا المرائي بصدقته بصفوان - أي بحجر كبير أملس - عليه تراب فيظنه الناس أرضاً خصبة طيبة، فإذا أصابه وابل أي مطر شديد أذهب عنه التراب وتركه صلداً أي ناعماً أملس، فكذلك هذا المرائي، فالمن والأذى والرياء يكشف عن سوء النية فتبطل الصدقة، كما يكشف المطر عن الحجر الأملس بإزالة ما علاه من التراب، فقد ذهب كله، وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل وتذوب عند الله تعالى وإن ظهرت في أعين أصحابها وللناس كالتراب كثرة وخصوبة ونماءً، ولهذا قال تعالى:{لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟} أي لا يقدر المرائي والمنان

والكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر على الانتفاع بثواب شيءٍ من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه، إذا كان لغير الله فعبر عن النفقة بالكسب، لأنهم قصدوا بها الكسب.{وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ} أي لا يوفقهم ولا يسددهم إلي الإيمان والاحتساب والإخلاص لله رب العالمين لأنهم اختاروا الضلالة والرياء والسمعة بأعمالهم وقدّموا المصالح الدنيوية الدنيئة علي المصالح الأخروية السامية واستحبّوا العمى علي الهدى، قال أحدهم:

أفسدتَ بالمن ما أسديت من حَسَن ::: ليس الكريمُ إذا أسدى بمنّان

{وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [النور: ٣٥].

***

المثل العاشر

جنة بربوة

المثل العاشر:
جنة بـربـوة

يقول الله تعالى:

{وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾} [البقرة: ٢٦٥].

هذا المثل ضربه الله تعالى للمنفقين أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته عن إيمانٍ واحتساب وإخلاص لا يرجون ثناءً من أحد ولا مدحاً ولا يطلبون بنفقاتهم إلا مرضاة الله تعالى ولذلك قال الله تعالى: {وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي تصديقاً ويقيناً، بمعنى أن أنفسهم تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله عز وجل، وأن نفوسهم موقنة بوعد الله وراجية لثوابه الذي لن يتخلف، بخلاف المنافق والمرائي بإنفاقه فإنهما لا يحتسبان الثواب، فمثل هؤلاء المخلصين الموقنين المتثبتين{كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ} أي بستان تغطيه الأشجار المثمرة بشتى صنوف الفواكه يزدهر على ربوة وهي المكان المرتفع، وما كان كذلك فنباته أطيب ونتاجه أوفر؛ ولذلك خصّ الربوة بالذكر:{أَصَابَهَا وَابِلٌ} أي مطر شديد{فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} أي أعطت ثماراً ضعف ما تعطي غيرها من الجنان، فما تعطيه في عام تعطيه غيرها في عامين،{فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ} هذه الجنة طيبة التربة عالية المنزلة غزيرة الإنتاج في كل الأحوال حتى وإن لم يصبها وابل من المطر الشديد، فطلٌ يكفيها ويرويها لتؤتي أُكلها ضعفين، والطل الندى، وقيل أضعف المطر،

وقيل الرذاذ من المطر. قال القرطبي: فشبه الله تعالى نمو نفقات هؤلاء المخلصين الذين يُربي الله صدقاتهم كتربية الفلوّ [1] والفصيل [2] بنمو نبات الجنة بالربوة الموصوفة بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه ترابه فبقي صلدا.

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالى:{فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ} قال: تلك أرض مصر إن أصابها طل زكت، وإن أصابها وابل أضعفت، إلا أن الآية أعم من ذلك وأشمل.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

* * *

(١) الفلو: المهر الصغير وهو ولد الفرس.
(٢) الفصيل: ولد الناقة.

المثل الحادي عشر

إعصار فيه نار

المثل الحادي عشر:
إعصار فيه نار

يقول الله جل وعلا:

{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾} [البقرة: ٢٦٦].

قال البخاري في تفسير هذه الآية: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ أنه قال: فيمن ترون هذه الآية نزلت:{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ}؟ قالوا: الله أعلم؛ فغضب عمر، فقال قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضُربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: " لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق عمله ". قال ابن كثير معقباً علي الرواية السابقة: وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل مَن أحسن العمل أولاً، ثم انعكس سيره فبدّل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من العمل الصالح؛ فاحتاج إلي شيء من ثمرات عمله الأول وهو في أضيق الأحوال وأمسّ الحاجة إلي شيء من حسناته الأولى، فلم يحصل منه علي شيء{لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟}

[البقرة: ٢٦٤]، وخانه أحوج ما كان إليه كرجل{وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ} أي أطفال صغار عند ضعفه وهرمه وعجزه{فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ} وهو ريح شديدة عاصفة{فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ } أي أحرق ثمار بستانه وأباد أشجاره ودمّر جنته وما فيها من خير كثير وكسب طيب وفير فلم يَعُد لديه قوة ليغرس مثله، ولم يكن عند ذريته خير يعودون به عليه؛ وذلك لصغرهم وضعفهم.

قال ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم: " كذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدّ إلي الله عزّ وجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا - الرجل الهرم العاجز - قوة فيغرس مثل بستانه كما لا يغنى عنه ولده؛ فحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حُرم هذا - الرجل - جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته "، ولهذا قال الله تعالي:{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ } أي تعتبرون وتفهمون الأمثال ومعانيها وتنزلونها علي المراد منها، كما قال تعالي:{ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الثاني عشر

يتخبطه الشيطان من المس

المثل الثاني عشر:
يتخبطه الشيطان من المس

يقول الله تعالى:

{ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ} [البقرة:٢٧٥].

يضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لأَكلَة الربا - وساء مثلهم -، فهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ومس الشيطان له، فهو يتخبط في قيامه، وكلما قام صُرع ووقع لأن بطونهم أثقلتهم بما امتلأت سُحتاً ورباً.

قال القرطبي: وقالوا كلهم: يبعث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جميع أهل المحشر، ويقوي هذا التأويل قراءة ابن مسعود للآية:{لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ} في الآية تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلي تجارة الدنيا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا ثم العذاب من وراء ذلك، وقوله:{يَأۡكُلُونَ} أي يكسبون الربا ويستحلونه، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دال على الجشع وهو أشد الحرص، فأقيم الأكل مقام الكسب كله، فاللباس والسكن والادخار والإنفاق علي العيال داخل في قوله:{يَأۡكُلُونَ} ولأن الربا شائع في المطعومات، روى ابن أبي حاتم وأحمد من حديث الإسراء قال: قال رسول الله ﷺ :«أُتيت ليلة

أُسري بي علي قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

وروى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: قال رسول الله ﷺ: «فأتينا علي نهر - حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم - وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا علي شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه - أي يفتح له فمه - يلقمه حجرا» وذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ}.

قال البيضاوي في أنوار التنزيل: أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلي الربح فاستحلوه استحلاله، وكان الأصل أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع، ولكن عكس للمبالغة كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا عليه البيع.

{وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ} إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

❋ ❋ ❋

المثل الثالث عشر

مثلُ عيسى

المثل الثالث عشر:
مثلُ عيسى

يقول الله تعالى:

{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾} [آل عمران: ٥٩ - ٦٠].

قال أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري في أسباب النزول:

قوله تعالي:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ} الآية.

إن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : مالك تشتم صاحبنا، قال: وما أقول؟

قالوا: تقول: إنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلي العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال القرطبي: قوله تعالي:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ} دليل علي صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسي خُلق من غير أب كآدم لا علي أنه خلق من تراب فإن آدم خُلق من تراب، ولم يُخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا علي النبي - ﷺ قوله:«إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبداً خُلق من غير أب، فقال لهم النبي ﷺ :«آدم من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسي ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم».

فذلك قوله تعالى:{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٣].

ولما دعاهم إلي الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: " كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب " فقالوا: من أبو عيسي؟ فأنزل الله تعالى:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ}.

قال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت: كيف شُبه به وقد وُجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلتُ: هو مثيله في إحدى الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأنه شُبّه به في أنه وُجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب؛ فشُبّه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شُبهته، وعن بعض العلماء انه أُسر بالروم، فقال لهم: لمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: آدم أولي لأنه لا أبوين له.

قال ابن كثير في تفسيره:

فالذي خلق آدم من غير أب - ولا أم - قادر علي أن يخلق عيسي بطريق الأولى.

و الأحرى - أي من أم بغير أب - ثم قال: ولكن الربَّ جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البريّة من ذكر وأنثى، ولهذا قال في سورة مريم:{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ} [مريم: ٢١]، وقال ههنا:{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا

تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، فلما رأوا في خلق عيسي - صلى الله عليه وعلي نبينا وسلم - عجباً وخرقاً للعادة عبدوه من دون الله واتخذوه ابنا للإله وجعلوه ثالث ثلاثة، ومثله في ذلك كمثل آدم عليه السلام، فإن في خلقه من تراب عجباً أشد من خلق عيسى وخرقاً أكبر للعادة من خلق عيسى، ورغم ذلك لم يقل عاقل متدبر في خلق الله وقدرته: إن آدم ابن الله أو هو الله أو ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فأولى لهم مع تعجبهم من خلقه دون أب واستغرابهم ذلك أن تخرّ جباههم وتخضع أعناقهم لله رب العالمين اعترافا بطلاقة قدرته وعظيم صنعته وحكمته وتصديقاً بوحدانيته وتنزيهاً له سبحانه وتعالي عن أن يكون له صاحبة أو ولد، هذا من ناحية خلقه عليه السلام، أما من ناحية فعله، فنطقه في المهد وإحياؤه الموتي وإبراؤه الأكمه والأبرص وصنعه للطير ونفخ الروح فيها، فكل ذلك كان بقدرة الله وتأييده وأمره لأنها معجزات أجراها الله تعالى علي يديه ليؤمن الناس برسالته، فعبدوا من أُجريت علي يديه المعجزات وتركوا عبادة الرب المجيد القدير الذي خلق المعجزات وادّعوا له ولداً. سبحانه!!

{وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾} [الزخرف: ٥٧ - ٥٩].

{ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٥].

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

***

المثل الرابع عشر

ريح فيها صِر

المثل الرابع عشر:
ريح فيها صر

يقول الله تعالى:

{مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾} [آل عمران: ١١٧].

قال ابن عباس: والصر: البرد الشديد، وقال عطاء: برد وجليد، وقيل أصل الصر من الصرير وهو صوت الريح الشديدة.

وقال الزجاج: هو صوت لهب النار التي فيها تلك الريح، وقال ابن كثير في تفسيره:{فِيهَا صِرٌّ} أي نار، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يُحرق الشيء بالنار،{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} أي فأحرقته بتلك الصاعقة إذا نزلت فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب أصحابه وظلمهم، وكذلك هؤلاء فقد بنوها علي غير أصل - من الإيمان والتوحيد - وعلي غير أساس - من الإخلاص والاحتساب -{وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }.

وقال القرطبي: ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته

ومنفعته{وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ} بذلك - أي بإحباط أعمالهم -{وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى.

وقال الزمخشري في الكشاف:

شبّه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحُسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي أصابه البرد الشديد فذهب حطاماً، وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلي الله مع كفرهم، وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، ثم قال: هو من التشبيه المركب، فالمعنى: مَثَل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح لحرث قوم ظلموا أنفسهم، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح لحرث قوم ظلموا أنفسهم.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

***

المثل الخامس عشر

مثله كمثل الكلاب

المثل الخامس عشر:
مثله كمثل الكلب

يقول الله تعالى:

{ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ } [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

أُختلف في هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فقيل هو بلعم أو بلعام بن باعوراء قاله ابن مسعود ﷺ وقيل هو صيفي بن الراهب، قاله قتادة عن ابن عباس ﷺ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد ابن أسلم: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في زمانه وتمني أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن لسانه وكفر قلبه» فإن له أشعاراً ربانية وحِكماً، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.، وقال مالك بن دينار: هو من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلي ملك مدين يدعوه إلي الله فأقطعه - أي من المنح والهدايا - وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام.

هذا، والمشهور الراجح عند المفسرين أنه بلعام بن باعوراء،

وكان من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام وكان مجاب الدعوة وكان يعلم اسم الله الأعظم، وقصته ساقها ابن كثير في تفسيره عن محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم عن أبي النضر: أنه حدّث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلُها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادعُ الله عليهم، قال: ويلكم، نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يتضرعون إليه حتى فتنوه، فركب حمارةً له وتوجه إلي الجبل الذي عليه عسكر بني إسرائيل فبركت به الحمارة فضربها حتى قامت فركبها فلم تسِر به كثيراً حتى بركت به فضربها فلم يزل يضربها ويرغمها علي السير حتى نطقت وكلمته حجه عليه، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟! تذهب إلي نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم ينزع عنها، فضربها، فسارت كارهة مرغمة حتى أشرفت به علي رأس الجبل فجعل يدعو علي موسى ومن معه، فلا يدعو عليهم بشر حتى صرف الله لسانه إلي قومه، ولا يدعو لقومه بخيرإلا صرف لسانه إلي بني إسرائيل، فقال له قومه أتدري يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال: فهذا ما أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، واندلع لسانه فوقع علي صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأفكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلي العسكر يبعنها فيه، ومُرُوهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم، ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزنا وتمادوا فيه

حتى أرسل الله عز وجل عليهم الطاعون فأهلك منهم سبعين ألفا، والمقلّ يذكر عشرين ألفاً في ساعة من النهار إلي أن قام مَنْ عصمه الله من هذه الفتنة وقتل من وقع فيها بحربته ونظر إلي السماء وهو يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفع الطاعون.

{فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} لما اندلع لسان بلعام علي صدره شبّهه الله جل وعلا بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه: إن وُجر يلهث وإن تُرك يلهث، كذلك هذا الذي انسلخ من آيات الله بعد أن كساه الله بها وزينه بها إن تدعُه إلي الإيمان وتعظه بالإنابة إلي الرحمن لا يستجب ولا ينتفع بالموعظة، وإن تتركه لا ينتفع أيضاً بعدمها ولو شاء الله لعصمه من الفتنه والمعصية وثبّته علي الإيمان فرفعه إلي الجنة{وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ} أي إلي لذاتها وشهواتها وركن إليها،{وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ} أي ما زين له الشيطان وتولي الكفار وحوّل هواه إليهم فضرب الله له مثلا بالكلب فهو يلهث في كل حال في التعب يلهث وفي الراحة يلهث وفي المرض يلهث وفي الصحة يلهث وفي العطش يلهث وفي الري يلهث كذلك الذي انسلخ من آيات الله، إن وعظته ضل وإن تركته ضل، كقوله تعالي:{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾} [الأعراف: ١٩٣].

{فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فاقصص يا محمد قصص السابقين ومنهم بلعام لعل بني إسرائيل العالمين بحاله وما جرى له من فتنة وردّه بسبب انسلاخه من آيات الله ونعمه التي أسبغها عليه واستعمال تلك النعم فيما يغضب الله معاداةً لأوليائه وموالاةً لأعدائه من بعد ما تبين له الهدى، لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله، وللأسف كان أكثرهم بعد ذلك فاسقين وأصبحوا مثل بلعام فكتموا العلم الذي آتاهم

الله وانسلخوا من آياته وتنكروا لسيدنا محمد ﷺ بعد أن عرّفهم الله بصفاته في كتابهم فعادَوه وآذوه وحاربوه، فأولى لهم أن يكونوا أحق الناس وأسبق الناس إلي اتباعه وتصديقه ومناصرته ومؤازرته.

وأيًا ما كان المقصود من هذه القصة، بلعام أو غيره، فإن فيها عبرةً لمن يعتبر وذكرى لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد، فقد { سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ } أي ساء مثلهم فهم كالكلاب الضالة التي لا همّ لها إلا تحصيل الطعام والشراب والشهوة، فمن خرج عن العلم والهدى بعد أن علّمه الله وهداه وأقبل علي شهوات نفسه وأخلد إلي الأرض واتبع هواه صار كالكلب، وساء مثله.

ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:«ليس منا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

وأخرج الحافظ أبو يعلى بإسناد جيد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتاده إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره» نعوذ بالله تعالي من الخذلان وسوء العاقبة ونسأله سبحانه السلامة وحسن الخاتمة وأن يديم علينا لباس التقوى والإيمان وأن يتوفانا علي طاعته وهو راض عنا مسلمين غير مبدلين وأن يلحقنا بالصالحين. آمين.

***

المثل السادس عشر

الحياة الدنيا

المثل السادس عشر:
الحيـاة الدنيـا

يقول الله تعالى:

{إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾} [يونس: ٢٤].

هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها وسرعة زوالها وانقضائها وذبول نضرتها وتحوّل جمالها ونعيمها عن أهلها، فمثلها في ذلك كله كمثل ماءٍ أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض، أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً مما يأكل الناس من الزروع والثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من الحشائش{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا } أي زينتها الفانية وبهرجها الخدّاع{وَٱزَّيَّنَتْ } أي تجملت بما خرج في رباها من زهور ناضرة وثمار يانعة مختلفة الأشكال والألوان وحدائق ذات بهجة تسر الناظرين{وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ} أي على حصادها والانتفاع بما زرعوه وغرسوه، فبينما هم كذلك إذ{أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا } أي جاءهم أمر الله بتدميرها وإهلاكها وإتلافها وتعذيب أهلها بما اقترفت أيديهم{فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ } أي محصودةً ذابلة يابسةً بعد الخضرة والنضرة والجمال كأنها لم تكن عامرةً ناضرةً من قبل، وهكذا الدول والممالك بعد زوالها كأنها

لم تكن، قال تعالى مخبراً عن الهالكين الغابرين:{فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ} [هود: ٦٧ - ٦٨].

وقد يعتقد البعض أن كلمة{أَمْرُنَا} في الآية تعني يوم القيامة لتدمير الأرض كلها وتحويل بهجتها وجمالها ونضرتها خراباً يباباً، وهذا خطأواضح لأن يوم القيامة لا يقع تحت الاحتمال بقوله تعالى:{لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} وذلك لأن يوم القيامة محسوم ميقاته في علم الله تعالى نهاراً لا ليلاً وفي يوم جمعة تحديداً، ثم قال الله جلّ وعلا:{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ويتدبرون ويتذكرون وينتفعون بما يضرب الله من أمثال.

ولذلك قال سبحانه:

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

وهذا المثل للحياة الدنيا سيُضرب أكثر من مرة بألفاظ شبيهة لهذه الآية مع اختلاف يسير في سُور أُخر سوف أتناولها في حينها وترتيبها إن شاء الله تعالى.

* * *

المثل السابع عشر

الأعمى والأصم

المثل السابع عشر:
الأعمى والأصم

يقول الله تعالى:

{ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى
ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ
كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾}

[هود: ١٩ - ٢٤].

قال الإمام ابن كثيرفي تفسيره: (لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات والقطوف الدانيات والحسان الخيرات والفواكه المتنوعات والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال:{مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ} أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصمّ، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصمّ عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به{أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس: ٤٢].

{أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ} [يونس: ٤٣]،{وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ} [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وذاك{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وأولئك كما قال تعالى:{لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾} [الحشر: ٢٠]، وكقوله:{وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ} [فاطر: ١٩ - ٢٢].

قال البيضاوي في أنوار التنزيل:{هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ} أي تمثيلاً أو صفةً أو حالاً{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} بضرب الأمثال والتأمل فيها، وقال البغوي في معالم التنزيل: قال الفرّاء: لم يقل: هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهم واحد لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أي تتعظون.

وقال الزمخشري في الكشاف: شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من (اللف والطباق)، وهو لون من البديع في علم البلاغة.

***

المثل الثامن عشر

كباسط كفيه إلى الماء

المثل الثامن عشر:
كباسط كفيه إلى الماء

يقول الله تعالى:

{لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾} [الرعد: ١٤].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: {لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ} التوحيد، لا إله إلا الله {وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ} أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله {كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ} قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: {كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ} يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً وقيل: المرادكقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها ::: من الوُد مثل القابض الماء باليدِ

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لاينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله آلهة غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال جلّ وعلا:

{وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ} قال القرطبي: {وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ} يعني الأصنام والأوثان {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ} أي لا يستجيبون لهم دعاءً ولا يسمعون لهم نداءً {إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ} ضرب الله

عز وجل الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد، وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: **الأول**: أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه، وزعم الفرّاء أن المراد بالماء ههنا البئر لأنها معدِن الماء وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء [1].

وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي ::: وبئري ذو حفرت وذو طويت

قال الإمام علي ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه، ومعنى{إِلَّا كَبَٰسِطِ} إلا كاستجابة{كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ} فالمصدر مضاف إلى

الباسط، ثم حُذف المضاف، وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء،

واللام في قوله:{لِيَبۡلُغَ فَاهُ} متعلقة بالبسط وقوله:{وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ} كناية عن الماء، أي وما الماء ببالغ فاه، ويجوز أن يكون كناية عن

(١) الرشاء: الدلو.

الفم، أي وما الفم ببالغ الماء{وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ} أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك، وقيل: إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه سبيلا، كما قال تعالى:{أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا} [الأعراف: ٣٧].

وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يستجيب دعاءهم.

قال الزمخشري في الكشاف: وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه، وقرئ:{وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ} بالتاء{كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ} بالتنوين{إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ} إلا في ضياع لا منفعة فيه لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾} [محمد: ٣].

* * *

المثل التاسع عشر

فأما الزبد فيذهب جُفاءً

المثل التاسع عشر:
فأما الزبد فيذهب جفاء

يقول الله تعالى:

{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ } [الرعد: ١٧].

قال ابن كثير في تفسيره: اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى:{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً } أي مطراً{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا } أي أخذ كل وادٍ بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها{فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ} أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه، هذا مثل، وقوله:{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ} هذا هو المثل الثاني وهو ما يُسبك في النار من ذهب أو فضة {ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ } أي ليُجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه - وهو خبث الذهب أو الفضة أو الحديد والنحاس، كما يعلو ذلك السيل زبد منه{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ}أي مثل الحق ومثل الباطل إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة مما يُسبك في النار، بل يذهب

ويضمحل، ولهذا قال:{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ} أي لا يُنتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه يُنتفع به، ولهذا قال:{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ} قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكِّها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله:{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ} وهو الشك.

{فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ} وهو اليقين، وكما تجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقوله:

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ} فهو الذهب والفضة والنحاس والحديد فله خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجُعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يمكن أن يُعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فيُنتفع به، فكذلك يضمحل الباطل.

فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلِك، وينتفع أهل الحق بالحق، وفي السُّنة المطهرة الصحيحة مثلٌ قريبٌ من هذا، فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلِم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به».

{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ} قال القرطبي: قال مجاهد: جموداً، وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أجفأت القِدر إذا غلت حتى ينصبّ زبدها وإذا جمد في أسفلها، والجفاء: ما أجفأه الوادي أي رمى به، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جفالاً} قال أبو عبيدة: يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته،{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ} قال مجاهد: هو الماء الخالص الصافي، وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص، وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث، وقيل: المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب، فشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها، قال ابن عباس{ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ} أي قرآناً، {فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا} قال: الأودية قلوب العباد، فالمعنى على هذا: أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثّل المحكم بالصافي والمتشابه بالزبد، وقيل: الزبد مخايل

النفس وغوائل الشك، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال النقية والأخلاق الزكية التي بها جمال الرجال وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء وبهما قيمة الأشياء.

قال الشوكاني في فتح القدير: وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل، وكخبث هذه الأجسام - أي الذهب والفضة وغيرهما من المعادن - فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه، فهذا مثل الباطل، وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شَوب فيه وهو مثل الحق.

قال الزمخشري في الكشّاف: نُكّرت الأودية لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض، فإن قلت: فما معنى قوله:{بِقَدَرِهَا} قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع غير ضارّ، لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت:٤٣].

المثل العشرون

مثلُ الجَنة

المثل العشرون:
مثل الجنة

يقول الله تعالى:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾} [الرعد: ٣٥].

هذا مثل قرّب الله به وصف الجنة وطبيعتها لعباده في الدنيا كي ترتسم في مخيلتهم صورة قريبة من حقيقتها، ويترسخ في إدراكهم شبه قريب من واقعيتها لأنها على الحقيقة لا يحيط بها خيالهم المحدود، ولا تدركها عقولهم القاصرة، لأن الجنة**«فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»** ففي هذا المثل يصف الله تعالى أنهار الجنة وثمارها وظلالها، فيقول:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا} أي تسرح الأنهار في أرجائها وجوانبها حيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرا لا ينضب ماؤها ولا يتغير طعمها ولا يتكدر صفوها ولا يزول نعيمها، فيها{وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾} [الواقعة: ٣٢ - ٣٣]، طعامها وشرابها دائمان بلا انقطاع ولا فناء، فيها ما لذ وطاب من صنوف الطعام والشراب{وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾} [الواقعة: ٢٠ - ٢١]،{وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾} [الواقعة: ٢٢ - ٢٣]، روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صلاة الكسوف، وفيه قالوا:

يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك

تكعكعت - أي تراجعت -، فقال:«إني رأيت الجنة - أو أُريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر ﷺ قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أُبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال:«إني عُرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه: ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه» هذا طرف يسير وجانب تقريبي بسيط عن طعام الجنة.

أما عن ظلال الجنة، فيصفها ربها جلّ وعلا فيقول:{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾} [الإنسان: ١٤]، ويقول:{لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: ٥٧]، ويقول:{وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾} [الواقعة: ٣٠]، فظلها لا يزول ولا يتقلص، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:«إن في الجنة شجرةً يسير الراكب المُجِدّ الجواد المُضمَّر(١) السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها».

{تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا} ليشتاقوا إليها ويرغبوا فيها ويشمروا في طلبها،{وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}.

اللهم أدخلنا الجنة بفضلك ورحمتك، وزحزحنا عن النار يا عزيزُ يا غفّار.

***

(١) المُضمَّر: المُعدّ للسباق.

المثل الحادي والعشرون

كرمادٍ اشتدت به الريح

المثل الحادي والعشرون:
كرمادٍ اشتـد ت بـه الريح

يقول الله تعالى:

{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾} [إبراهيم: ١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافرين الذين أشركوا بالله وعبدوا معه غيره وكذّبوا رسله، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساس من التوحيد والإيمان الخالص، فانهارت أعمالهم وكانت هباءً منثورا، وذهبت في مهب الريح، فيقول الله تعالى:{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ} أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء من الدين - فلم يجدوا شيئاً إلا كمن يطلب الرماد إذا اشتدت به الريح{فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ} أي في يوم ذي ريح شديدة عاصفة قوية،{لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ} أي لا يقدرون على نيل ثواب أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، لأنها لم تكن خالصةً لوجه الله الكريم، ولم تكن صادرةً عن إيمان صحيح، ولذلك قال الله جلّ وعلا:

{ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾} [الفرقان: ٢٣]، {ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ } ففقدوا ثواب أعمالهم أحوج ما كانوا إليها{وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [آل عمران: ١١٧].

قال القرطبي: (والمعنى: أعمالهم محبطة غير مقبولة، فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح

الشديدة الرماد في يوم عاصف، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى.)

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل: (شبّه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباءً منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه، أو أعمالهم للأصنام برماد طَيّرته الريح العاصف، فلا يرون له أثراً من الثواب،

{ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ} إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون، فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

ومعنى هذا المثل ضربه الله تعالى في أمثال أخرى كثيرة في كتابه العظيم، حيث شبّه أعمال الكافرين تارة{كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً} [النور: ٣٩]، وتارة{كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ} [النور: ٤٠]، وتارة{كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا} [البقرة: ٢٦٤]، وتارة{كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} [آل عمران: ١١٧]، إلى آخر هذه الأمثال التي سبق عرض بعضها وبيانه، وسوف أتناول البعض الآخر الذي لم يسبق شرحه بالبيان والتفصيل إن شاء الله تعالى.

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

المثل الثاني والعشرون

الكلمة الطيبة

المثل الثاني والعشرون:
الكلمة الطيبة

يقول الله جلّ وعلا:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال ابن عباس: قوله:{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً} هي شهادة أن لا إله إلا الله{كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ} في قلب المؤمن،{وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ} يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

قال القرطبي: لما ذكر الله تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ذكر مثل أقوال المؤمنين وأعمالهم، ثم فسّر ذلك المثل فقال:{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً} الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، كما قال ابن عباس، وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة الإيمان، وقال العوفي والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه، وقال مجاهد وعكرمة: الشجرة الطيبة هي النخلة، شبّهه بالنخلة في المنبت، وشبّه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة، وثواب الله له بالثمر، ويجوز أن يكون المعنى: أصل النخلة ثابت في الأرض - أي جذورها راسخة - تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية.

قال البغوي في معالم التنزيل:{أَصْلُهَا ثَابِتٌ} في الأرض {وَفَرْعُهَا} أعلاها{فِي ٱلسَّمَآءِ} وكذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن

بالمعرفة والتصديق فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عز وجل، قال الله تعالى:{إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ} [فاطر: ١٠]، وروى البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ :«**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي،... ثم قال: هي النخلة**»، وزاد فيه الحارث بن أسامة:«**وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة**» فبين معنى الحديث والمماثلة.

قال القرطبي: وذكر الغزنوي عنه ﷺ قوله:«**مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك، وإن جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك، كالنخلة كل شيءٍ منها يُنتفع به**»،{تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ} أي تؤتي ثمارها كل وقت غدوةً وعشيّا وكل ساعة من ليل أو نهار صيفاً وشتاءً في أوقات مختلفة فيؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والبُسر والبلح والزهو والتمر والطلع - أي على اختلاف أشكاله وألوانه.

{بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي بإرادته ومشيئته وتيسير خالقها وعلمه سبحانه وتكوينه.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميّله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز – أي الصنوبر – لا تهتز حتى تستحصد**» أي إن

المؤمن ثابت راسخ الإيمان مهما عصفت به المحن والابتلاءات فهو صابر محتسب لا يحيد عن طريق الإيمان كالزرع أو الأشجار الثابتة الراسخة تتمايل مع الريح يميناً ويساراً فلا تسقط ولا تتقصف، أما المنافق فمثله: «كمثل شجرة الصنوبر إذا عصفت بها الريح فإنها لا تهتز ولا تتمايل ولكنها تنقصف وتجتث من فوق الأرض».

{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} [إبراهيم: ٢٦]، كما سيأتي في المثل التالي.

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

أي يتفكرون ويتدبرون أحوال المبدأ والمعاد وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وحدانيته وعظمته وطلاقة قدرته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني.

اللهم ثبتنا على الكلمة الطيبة وآتنا ثمارها كل حين بإذنك يانعةً طيبةً واحشرنا مع أهلها الطيبين غير مبدلين آمين.

* * *

المثل الثالث والعشرون

الكلمة الخبيثة

المثل الثالث والعشرون:
الكلمة الخبيثة

يقول الله تعالى:

{ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)} [إبراهيم: ٢٦].

هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، كمثل شجرة الحنظل، لا تثمر إلا نكدا، ولا طعم لها إلا المرارة التي لا تطاق ولا تُستساغ حتى ضُرب بها المثل في ذلك.

قال القرطبي: الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا: أنها شجرة لم تخلق على الأرض. وقيل: هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا. وقيل: الكمأة أو الطحلبة. وقيل: الكشوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهم كشوث فلا أصل ولا ورقُ

{ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ} اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لقيط:

والجلاء الذي تجتث أصلكم ::: فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا

وقال المؤرج: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما. وجثّه قلعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض.{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي من

أصل في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

قال الزمخشري في الكشاف: والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة. وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث ونحو ذلك. وقوله: {ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ} في مقابلة قوله:{أَصْلُهَا ثَابِتٌ} ومعنى:{ٱجْتُثَّتْ} استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها{مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي استقرار، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وقال الشوكاني في فتح القدير:

{ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا.

قال جلال الدين السيوطي في الدر المنثور:

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة ﷺ قال: اعقلوا من الله الأمثال.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾}

[العنكبوت: ٤٣].

***

المثل الرابع والعشرون

عبـداً مملوكاً

المثل الرابع والعشرون:
عبدا مملوكا

يقول الله جلّ وعلا:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥} [النحل: ٧٥].

قال ابن كثير في تفسيره:

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولكان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى:{ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ}.

وقال القرطبي:

قوله تعالى{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا} نبه تعالى على ضلالة المشركين، وهومنتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم. {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا} أي بين شبها؛ ثم ذكر ذلك فقال{عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا} أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رُزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخر بإرادة سيده.

وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد

المملوك هو الكافر؛ لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، إلا أنّ معنى{وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} : المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل التأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه أسرا وأنضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه؛ فقال الله تعالى ضربا للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مَواتا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع؟!

فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك. قال أهل العراق: الرق ينافي الملك، فلا يملك شيئا البتة بحال، وهو قول الشافعي في الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين. ومنهم من قال: يملك إلا أنه ناقص الملك، لأن لسيده أن ينتزعه منه أي وقت شاء، وهو قول مالك ومن اتبعه، وبه قال الشافعي في القديم. وهو قول أهل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادات الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك. وروي عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده. والله أعلم.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معولا على قوله تعالى{لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ}. قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدل دليل على خلافه. وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى{وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} هو المؤمن، يطيع الله في نفسه وماله. والكافر ما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا.{هَلْ يَسْتَوُۥنَ} أي لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. وقيل{إِن عَبْدًا مَّمْلُوكًا}،{وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ} أريد بهما الشيوع في الجنس {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق.{بَلْ أَكْثَرُهُمْ} أي أكثر المشركين. {لَا يَعْلَمُونَ} أنّ الحمد لي، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع، فهو خاص أريد به التعميم. وقيل: أي بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالا كثيرا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق وتقييد العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضا عبد الله وبسلب القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون له وجعله قسيما للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك والأظهر أن(مَن) نكرة موصوفة ليطابق (عبدا) وجمع الضمير في (يستوون) لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد (الحمد لله) كل الحمد له لا يستحقه غيره فضلا عن

العبادة لأنه مولى النعم كلها (بل أكثرهم لا يعلمون) فيضيفون نعمه إلى غيره ولايعبدونه لأجلها.

وقال الزمخشري في الكشاف:

ثم علمهم - أي بعد أن نهاهم عن أن يضربوا له سبحانه الأمثال - كيف تضرب الأمثال فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء. فإن قلت: لمَ قال{مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ} وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله. وأما{لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ} فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له لأنهما يقدران على التصرف. واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه يصح له. فإن قلت: (من) في قوله{وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ} ما هي قلت: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل وحراً رزقناه ليطابق عبداً.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣} [محمد: ٣].

***

المثل الخامس والعشرون

أبكمُ لا يقدر على شيء

المثل الخامس والعشرون:
أبكم لا يقدر على شيء

يقول الله تبارك وتعالى:

{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ } [النحل: ٧٦].

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا{كَلٌّ} أي عيال وكلفة على مولاه{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ} أي يبعثه{لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} ولا ينجح مسعاه {هَلْ يَسْتَوِى} من هذه صفاته{وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة{وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

قوله تعالى{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ } هذامثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قتادة وغيره. وقال ابن عباس: الأبكم عبد كان لعثمان ﷺ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى،{يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} عثمان. وعنه أيضا أنه مثل لأبي بكر الصديق ومولى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر.

وقال القرطبي: وقال مقاتل: نزلت في هشام بن عمرو بن

الحارث، كان كافرا قليل الخير يعادي النبي ﷺ وقيل: إن الأبكم هو الكافر، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن جملة بجملة؛ روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم. والأبكم الذي لا نطق له. وقيل الذي لا يعقل. وقيل الذي لا يسمع ولا يبصر. وفي التفسير إن الأبكم ههنا الوثن. بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر، وأن غيره ينقله وينحته فهو كَلّ عليه. والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء.{وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ} أي ثقل على وليه وقرابته، ووبال على صاحبه، والكلّ أيضا الذي لا ولد له ولا والد. والكل العيال،{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} قرأ الجمهور {يُوَجِّههُّ} وهو خط المصحف؛ أي أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه. وقرأ يحيى بن وثاب{أَيْنَمَا يُوَجَّههُّ} على الفعل المجهول. وروي عن ابن مسعود أيضا (توجه) على الخطاب.{ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم؟! وقال الشوكاني في فتح القدير:

{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا } أي مثلا آخر أوضح مما قبله وأظهر منه، ثم قال: وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا ثم وصفه بصفة رابعة فقال:{أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} أى إذا وجهه إلى أي جهة لا يأتي بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول شيئاً.

{ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ} في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها.

{وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} أى يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الأشياء{وَهُوَ} في

نفسه﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبى الإفراط والتفريط قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشئ وحاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق والمقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا.

وقال الزمخشري في الكشاف: وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠].

* * *

المثل السادس والعشرون

نقضت غزلها

المثل السادس والعشرون:
نقضت غزلها

يقول الله عز وجل:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل: ٩٢].

قال القرطبي:

قوله تعالى﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث. فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكما ثم تحله. ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قال الفرّاء، وحكاه عبدالله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة، وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضرب مثل، لا على امرأة معينة. و﴿أَنكَـٰثًا﴾ نصب على الحال. والدخل: الدغل والخديعة والغش. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل.﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى - قاله مجاهد - فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم

الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين. والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم، وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان.{أَرْبَىٰ} أي أكثر؛ من ربا الشيء يربو إذا كثر. والضمير في (به) يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } من البعث وغيره.

وقال ابن كثير: وقوله:{ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا } قال عبد الله بن كثير والسدي هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد ابرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا وقوله:{أَنكَـٰثًا} يحتمل أن يكون اسم مصدر نقضت غزلها أنكاثا أي أنقاضا ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أي تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده{ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ } أي خديعة ومكرا.

{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ } أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى، وقد كان بين معاوية وملك الروم أمد فسار إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غافلون لا يشعرون فقال له عمرو بن عنبسة

الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها فرجع معاوية ﷺ بالجيش.

قال ابن عباس{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} أي أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه وقوله:{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ} قال سعيد بن جبير يعني بالكثرة رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر، وقال الزمخشري في الكشاف عن المرأة الخرقاء التي كانت تنقض غزلها: فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن، يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ودغلاً{بَيْنَكُمْ} أي مفسدة،{أَن تَكُونَ أُمَّةٌ} بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش{هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من أمة من جماعة المؤمنين{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ} الضمير لقوله: أن تكون أمة لأنه في معنى المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ} إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام، وهو مثل عام في الأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقض الأيمان والميثاق تحت أي مبرر من المبررات.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

المثل السابع والعشرون

قريةً كانت آمنة مطمئنة

المثل السابع والعشرون:
قريــة كانت آمنة مطمئنة

يقول الله جل وعلا:

{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾} [النحل: ١١٢ - ١١٣].

قال القرطبي:

وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**». فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاما ففرق فيهم. {كَانَتْ ءَامِنَةً} لا يُهاج أهلها. {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ} من البر والبحر؛ نظيره {يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ} [القصص: ٥٧]، {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ} الأنعم: جمع النعمة؛ كالأشُد جمع الشدة. وقيل: جمع نعمى؛ مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ {فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ} أي أذاق أهلها. {لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ} سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. {بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} أي من الكفر والمعاصي، وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي ﷺ سراياه التي كانت تطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده، لمّا كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى؟ وقد قيل: إنها المدينة، آمنت

برسول الله ﷺ ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ وقيل: إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

وقال ابن كثير:

مثل أريد به أهل مكة فإنها آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى:{ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا} [القصص: ٥٧] وهكذا قال ههنا.

{يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا} أي هنيئا سهلا{مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ} أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾} [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال:{فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ} أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير بدمه إذا نحروه وقوله: {وَٱلْخَوْفِ} وذلك أنهم بُدلوا خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابهم حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ورزقهم بعد العيلة وجعلهم أمراء الناس

وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله وقال ابن جرير عن سليم بن نمير:

صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان ﵁ محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل فقالت حفصة والذي نفسي بيده إنها القرية تعني المدينة التي قال الله تعالى:{ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ } قال ابن شريح وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول: إنها المدينة.

ثم قال القرطبي:

وقوله تعالى{ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ } هذا يدل على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.{ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ } وهو الجوع الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها.

وهذا المثل وإن نزل في أهل مكة، إلا أنه يُضرب لكل قرية أو دولة أو مملكة كانت تعيش في أمن ورخاء ورغد من العيش فكفرت بأنعم الله وبدّلت نعمة الله كفراً فأذاقها الله لباس الجوع والخوف وأحلـّها دار البوار بكفرهم وجحودهم وإفسادهم في الأرض؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ } [القصص: ٥٩].

***

المثل الثامن والعشرون

صاحب الجنتين

المثل الثامن والعشرون:
صاحب الجنـتين

يقول الله سبحانه:

{وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا
بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ
جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ
قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ
رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ
عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ
لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا
﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾} [الكهف: ٣٢ - ٤٤].

قال ابن كثير:

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية

الجودة، ونقل السهيلي: عن محمد ابن الحسن المقري: اسم الخيِّر من الرجلين (تمليخا) واسم الآخر (فوطيس) وأنهما كانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاماً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً - وأما الآخر: فنكح بماله نساء ذات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له نماء مفرطاً، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى. وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكد يصل إليه من غلظ الحُجّاب فلما دخل عليه وعرفه سأله حاجته، قال: ألم أكن قاسمتك المال شطرين، فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير وأبقى. قال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال؟ وذلك أني كسبت وسفهت أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بثمرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرماني، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليخا) وقيل: (يهوذا)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات{قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ} [الصافات: ٥١ - ٥٢]، الآية. ولهذا قال:{كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا} أي أخرجت ثمرها{وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا} أي لم تنقص منه شيئاً{وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا} أي والأنهار متفرقة ههنا وههنا{وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ} قيل: المراد به المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر

ههنا،{فَقَالَ} أي صاحب هاتين الجنتين{لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ} أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس{أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا} أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر. وقوله:{وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ} أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد،{قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا} وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال:{ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ} أي كائنة،{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا} أي ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكوننَّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى{وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ} [فصلت: ٥٠]، وقال: {أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾} [مريم: ٧٧].

ثم يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار:{أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ}، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: {كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ} [البقرة: ٢٨]، الآية، أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن{لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي} : أي لكن لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالواحدنية والربوبية،{وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا} أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال:{ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا}، هـذا

تخصيص وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :«**ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت**» أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي ". وكان يتأول هذه الآية:{ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ }، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له:«**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ : «**يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟**» قال، قلت: فداك أبي وأمي، قال: (**أن تقول لا قوة إلا بالله**). قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: (فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم)(١).

وقوله:{ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ } أي في الدار الآخرة،{وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا } أي على جنتك في الدينا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى{حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ }، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال:{فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا}، أي بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً، وقوله:{ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

غَوۡرٗا} أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: {قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠} [الملك: ٣٠]، أي جار وسائح، وقال ههنا: {أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا} ثم يقول تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ} بأمواله وبثماره ما كان يحذر مما خوّفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عزّ وجلّ، {فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا}، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، {وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ} أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعزّ {يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ} أي الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: {فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤} [غافر: ٨٤]. وكقوله إخباراً عن فرعون: {حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ} [يونس: ٩٠]، ومنهم من كسر الواو من {ٱلۡوَلَٰيَةُ} أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: {ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ} [الأنعام: ٦٢] الآية. ولهذا قال تعالى: {هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا} [الكهف: ٤٤]: أي جزاء {وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا} [الكهف: ٤٤]، أي الأعمال التي تكون لله عزّ وجلّ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

{وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤} [الكهف: ٥٤].

***

المثل التاسع والعشرون

مثل الحياة الدنيا

المثل التاسع والعشرون:
مثل الحياة الدنيا

يقول الله جل وعلا:

{ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾} [الكهف: ٤٥ - ٤٦].

قال ابن كثير:

يقول تعالى:{ وَٱضۡرِبۡ} يا محمد للناس{مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا } في زوالها وفنائها وانقضائها،{كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ} أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنُضرة، ثم بعد هذا كله{فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا} يابساً{تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ} أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال،{وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا} أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس:{إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ } [يونس: ٢٤]، الآية - وقد سبق في المثل السادس عشر -، وقال في سورة الحديد:{ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ} [الحديد: ٢٠] الآية، وسوف يأتي في المثل الثاني والثلاثين إن شاء الله تعالى، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». وقوله:{ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ} كقوله:{ زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ} [آل عمران: ١٤] الآية. وقال تعالى: {إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾} [التغابن: ١٥]: أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: {وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}، قال ابن عباس وسعيد ابن جبير، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: {وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ}: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عن {وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ} ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات**»(١).

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧].

* * *

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة.

المثل الثلاثون

لن يخلُقوا ذُباباً

المثل الثلاثون:
لن يخلقوا ذبابا

يقول الله تبارك وتعالى:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾} [الحج: ٧٣].

قال القرطبي:

قوله تعالى{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ} هذا متصل بقوله:{وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا} [الحج: ٧١]. وإنما قال{ضُرِبَ مَثَلٌ} لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم. فإن قيل: فأين المثل المضروب؟ ففيه وجهان: **الأول:** قال الأخفش: ليس ثَمّ مثل، وإنما المعنى ضربوا لي مثلا فاستمعوا قولهم؛ يعني أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره؛ فكأنه قال جعلوا لي شبيها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه.

الثاني: قول القتبي: وأن المعنى يا أيها الناس، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه. وقال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل ما يعبد من دونه مثلا، قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه؛ أي بين الله لكم شبها ولمعبودكم.{إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} قراءة العامة{تَدۡعُونَ} بالتاء. وقرأ السلمي وأبو العالية ويعقوب{يدعون} بالياء على الخبر. والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاثمائة وستون صنما.

وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى، والأول أصوب.{لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا} الذباب اسم واحد للذكر والأنثى، والجمع القليل أذبة والكثير ذبان؛ على مثل غراب وأغربة وغربان؛ وسمي به لكثرة حركته.

قال الجوهري: والذباب معروف الواحدة ذبابة، ولا تقل ذبانة. والمذبة ما يذب به الذباب. وذباب أسنان الإبل حدها. وذباب السيف طرفه الذي يضرب به. وذباب العين إنسانها. والذبابة البقية من الدين. وذبب النهار إذا لم يبق منه إلا بقية. والتذبذب التحرك. والذبذبة نوس الشيء المعلق في الهواء.

{وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} الاستنقاذ والإنقاذ التخليص. قال ابن عباس: (كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فتجف فيأتي الذباب فيختلسه). وقال السدي: كانوا يجعلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله.{ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ} قيل: الطالب الآلهة والمطلوب الذباب. وقيل بالعكس. وقيل: الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه. وقد قيل{وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا} راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها. وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين. وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

وقال الزمخشري في الكشاف:

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً قلت: قد سميت

الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم. قرىء: "تدعون" بالتاء والياء ويدعون: مبنياً للمفعول "لن" أخت "لا" في نفي المستقبل إلا أن "لن" تنفيه نفياً مؤكداً وتأكيده ههنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم كأنه قال: محال أن يخلقوا فإن قلت: ما محل:{وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ} قلت: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا. وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا.

وقوله: "**ضعف الطالب والمطلوب**" كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكُوى فيأكله.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ} أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به {فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ} أي أنصتوا وتفهموا{إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن

﴿يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»[1].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب؛ واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم، ثم قال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤]، أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي قد عزَّ كل شيء وغلبه، فلا يمانع ولا يغالَب، لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج: ٧٤].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

* * *

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

المثل الحادي والثلاثون

الله نور السماوات والأرض

المثل الحادي والثلاثون:
الله نور السماوات والأرض

يقول الله جل وعلا:

{ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾} [النور: ٣٥].

قال القرطبي:

النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر. واستعمل مجازا فيما صح من المعاني ولاح فيقال منه: كلام له نور. ومنه: الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر:

نسب كأن عليه من شمس الضحى ::: نورا ومن فلق الصباح عمودا

فيجوز أن يقال: لله تعالى نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وقد قال هشام الجوالقي وطائفة من المجسمة: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام. وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إن قولهم متناقض؛ فإن قولهم جسم أو نور حكم عليه بحقيقة ذلك، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفي لما أثبتوه من الجسمية والنور؛ وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام. والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها

هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجد: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض**». وقال ﷺ وقد سئل: هل رأيت ربك؟ فقال: «**رأيت نورا**». إلى غير ذلك من الأحاديث.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: المعنى أي به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها. فالكلام على التقريب للذهن؛ كما يقال: الملك نور أهل البلد؛ أي به قوام أمرها وصلاح جملتها؛ لجريان أموره على سنن السداد. فهو في الملك مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نورا هاديا؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات، تبارك وتعالى لا رب غيره ولا إله سواه. قال معناه مجاهد والزهري وغيرهما. قال ابن عرفة: أي منور السماوات والأرض. وكذا قال الضحاك والقرظي. كما يقولون: فلان غياثنا؛ أي مغيثنا. وفلان زادي؛ أي مزودي. قال جرير:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ::: ونبت لمن يرجو نداك وريق

أي ذو ورق. وقال مجاهد: مدبر الأمور في السماوات والأرض، وقال أبيّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مزين السماوات بالشمس والقمر والنجوم، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقال ابن عباس وأنس: المعنى الله هادي أهل السماوات والأرض. والأول أعم للمعاني وأصح مع التأويل.

قوله{مَثَلُ نُورِهِۦ} أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن؛ والدلائل تسمى نورا. وقد سمى الله تعالى كتابه نورا فقال {وَأَنزَلۡنَآ

إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } [النساء: ١٧٤]، وسمّى نبيه نورا فقال:{قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ } [المائدة: ١٥] . وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين وكذلك الرسول. ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها. وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أن يريد مثل نور الله الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس؛ فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر. والمشكاة: الكُوّة في الحائط غير النافذة؛ قال ابن جبير وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء. والمشكاة وعاء من أدم كالدلو يبرد فيها الماء؛ وهو على وزن مفعلة كالمصفاة. قال الشاعر:

كأن عينيه مشكاتان في حجر ::: قيضا اقتياضا بأطراف المناقير

وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. وقال{فِى زُجَاجَةٍ} لأنه جسم شفاف، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج. والمصباح: الفتيل بناره{كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ} أي في الإنارة والضوء. وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك. وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك: الكوكب الدري هو الزُهرة.

قوله{يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ} أي من زيت شجرة، فحذف المضاف. والمباركة المنماة؛ والزيتون من أعظم الثمار نماء، والرمان كذلك. والمعنى يقتضي ذلك.

وقيل: من بركتهما أن أغصانهما تورق من أسفلها إلى أعلاها.
وقال ابن عباس: في الزيتونة منافع، يسرج بالزيت، وهو إدام ودهان ودباغ، ووقود يوقد بحطبه وتفله، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة، حتى الرماد يُغسل به. وهي أول شجرة نبتت في الدنيا، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان، وتنبت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة، ودعا لها سبعون نبيا بالبركة؛ منهم سيدنا إبراهيم، ومنهم سيدنا محمد ﷺ فإنه قال:«**اللهم بارك في الزيت والزيتون**». قاله مرتين.

قوله:{لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} اختلف العلماء في قوله:{لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم: الشرقية التي تصيبها الشمس إذا أشرقت ولا تصيبها إذا غربت لأن لها سترا. والغربية عكسها؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزيتها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية.

وقال الطبري عن ابن عباس: إنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. قاله ابن عطية: وهذا قول لا يصح عن ابن عباس لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها وذلك مشاهد في الوجود. وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية. الثعلبي: وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا؛ لأنها بدل من الشجرة، فقال{زَيْتُونَةٍ}. وقال ابن زيد: إنها من شجر الشام؛ فإن شجر الشام لا شرقي ولا غربي، وشجر الشام هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة، و{شَرْقِيَّةٍ} نعت{الزيتونة} و{لَّا} ليست تحول بين النعت والمنعوت،{وَلَا غَرْبِيَّةٍ} عطف عليه.

قوله: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} مبالغة في حسنه وصفائه وجودته. {نُورٌ عَلَى نُورٍ} أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور. واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون فكذلك براهين الله تعالى واضحة وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر. ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله لعباده في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان. وقرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي{اللَّهُ نُوَّرَ} بفتح النون والواو المشددة. واختلف المتأولون في عود الضمير في{نُورِهِ} على من يعود؛ فقال كعب الأحبار وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ أي مثل نور محمد ﷺ قال ابن الأنباري{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقف حسن، ثم تبتدئ{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} على معنى نور محمد ﷺ وقال أبي بن كعب وابن جبير أيضا والضحاك: هو عائد على المؤمنين. وفي قراءة أبيّ{مثل نور المؤمنين}. وروي أن في قراءته{مثل نور المؤمن}. وروي أن فيها{مثل نور من آمن به}. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان. قال مكي: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله{وَالْأَرْضِ}. قال ابن عطية: وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل فعلى من قال: الممثل به محمد ﷺ، وهو قول كعب الأحبار؛ فرسول الله ﷺ هو المشكاة أو صدره والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من عمله وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحي، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي. ومن قال: الممثل به

المؤمن، وهو قول أبيّ؛ فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها. قال أبيّ: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات. ومن قال: إن الممثل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة؛ أي كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان. وقالت طائفة: الضمير في{نُورِهِۦ} عائد على الله تعالى. وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبي والماوردي والمهدوي، وقد تقدم معناه. ولا يوقف على هذا القول على{وَٱلۡأَرۡضِۚ}.

قال المهدوي: الهاء لله عز وجل؛ والتقدير: الله هادي أهل السماوات والأرض، مثل هداه في قلوب المؤمنين كمشكاة؛ وروي ذلك عن ابن عباس. وكذلك قال زيد بن أسلم، والحسن: إن الهاء لله عز وجل. وكان أبيّ وابن مسعود يقرآنها{مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة}. قال محمد بن علي الترمذي: فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره قلب المؤمن، وتصديقه في آية أخرى يقول{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ} [الزمر: ٢٢]، وأن هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده، قاله ابن العربي، قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإن مسته النار زاد ضوؤه، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة{هَٰذَا رَبِّيۖ}

[الأنعام: ٧٦]، من قبل أن يخبره أحد أن له ربا؛ فلما أخبره الله أنه ربه زاد هدى، فقال له ربه:{أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} [البقرة: ١٣١]. ومن قال: إن هذا مثل للقرآن في قلب المؤمن قال: كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يهتدي به ولا ينقص فالمصباح القرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة لسانه وفهمه والشجرة المباركة شجرة الوحي.{يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ} تكاد حجج القرآن تتضح ولو لم يقرأ.{نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ} يعني أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نورا على نور. ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال{يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ} أي يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام.{وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} أي بالمهدي والضال.

وروي عن ابن عباس أن اليهود قالوا: يا محمد، كيف يخلص نور الله تعالى من دون السماء؟ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره؛ ولما كانت المساجد بيوت الله في الأرض ومصدر نور هدايته ومنارات إشعاع للسالكين، ثنّى الله عز وجل بذكرها والتنويه بفضل عمارتها وعُمّارها، فقال عز من قائل:

{فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾} [النور: ٣٦ - ٣٧].

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

***

المثل الثاني والثلاثون

كسراب بقيعة

المثل الثاني والثلاثون:
كسراب بقيعة

يقول الله جلّ وعلا:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩].

قال ابن كثير:

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار - أي هذا المثل والذي يليه، فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بُعد كأنه بحر طامٍ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، يُرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه{لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}، فكذلك الكافر، يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصّل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية، كما قال تعالى:{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا} [الفرقان: ٢٣]، وقال ههنا:{وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، وفي الصحيحين:«أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهافتون

فيها»[1].

وهذا المثل مثل لذوي الجهل المركب.

وقال القرطبي:

قوله {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر. قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان يترهب متلمسا للدين، فلما خرج ﷺ كفر. وقال أبو سهل: نزلت في أهل الكتاب. وقال الضحاك: في أعمال الخير للكافر؛ كصلة الرحم ونفع الجيران. والسراب: ما يرى نصف النهارفي اشتداد الحر، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض. والآل الذي يكون ضحى كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء. وسمي السراب سرابا لأنه يسرب أي يجري كالماء. ويقال: سَرَب الفحل أي مضى وسار في الأرض. ويسمي الآل أيضا، ولا يكون إلا في البرية والحر فيغتر به العطشان. قال الشاعر:

فكنت كمهريق الذي في سقائه ::: لرقراق آل فوق رابية صلد

وقال آخر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم ::: لمع سراب بالفلا متألق

وقال امرؤ القيس:

ألم أنض المطي بكل خرق ::: أمق الطول لَمّاع السرابِ

والقيعة جمع القاع؛ مثل جيرة وجار؛ قاله الهروي وقال أبو عبيدة: قيعة وقاع واحد؛ حكاه النحاس. والقاع ما انبسط من الأرض

---

(١) أخرجه الشيخان.

واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب. وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. قال الجوهري: والقاع المستوي من الأرض؛ والجمع أقوع وأقواع وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ والقيعة مثل القاع، وهو أيضا من الواو. وبعضهم يقول: هو جمع.

{يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ} أي العطشان.{مَآءً} أي يحسب السراب ماء.{حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا} مما قدره ووجد أرضا لا ماء فيها. وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يعولون على ثواب أعمالهم فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أي لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضا لا ماء فيها؛ فهو يهلك أو يموت.{وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ} أي وجد الله بالمرصاد.{فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ} أي جزاء عمله.

قال امرؤ القيس:

فولى مدبرا يهوي حثيثا ::: وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حشره، والمعنى متقارب. وقرئ{بقيعات}. المهدوي: ويجوز أن تكون الألف مشبعة من فتحه العين، وقوله{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ} ابتداء{أَعۡمَٰلُهُمۡ} ابتداء ثان. والكاف من{كَسَرَابِۭ} الخبر، والجملة خبر عن{ وَٱلَّذِينَ}. ويجوز أن تكون{أَعۡمَٰلُهُمۡ} بدلا من{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ}؛ أي وأعمال الذين كفروا كسراب، فحذف المضاف.

{وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

المثل الثالث والثلاثون

كظلمات في بحر لُجّي

المثل الثالث والثلاثون:
كظلمات في بحر لجي

يقول الله جلّ جلاله:

{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾} [النور: ٤٠].

قال القرطبي: قوله{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ} ضرب تعالى مثلا آخر للكفار أي أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات. قال الزجاج: إن شئت مثل بالسراب وإن شئت مثل بالظلمات فـ{أَوْ} للإباحة حسبما تقدم من القول في { أَوْ كَصَيِّبٍ } [البقرة: ١٩] . وقال الجرجاني: الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم وقد قال:{يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، أي من الكفر إلى الإيمان وقال أبو علي{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ} أو كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله{إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ} فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف. قال القشيري: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر الكافر، وعند أبي علي للكافر. وقال ابن عباس في رواية: هذا مثل قلب الكافر.{فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ} قيل: هو منسوب اللُّجة، وهو الذي لا يدرك قعره. واللُّجة معظم الماء، والجمع لُجج. والتجَّ البحر إذا تلاطمت أمواجه؛ ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:«**من ركب البحر إذا التجَّ فقد برئت منه الذمة**». والتج الأمر إذا عظم واختلط. وقوله{حَسِبَتْهُ لُجَّةً} [النمل: ٤٤]، أي ما له

عمق. ولججت السفينة أي خاضت اللجة بضم اللام. فأما اللَّجة بفتح اللام فأصوات الناس يقول: سمعت لجة الناس أي أصواتهم وصخبهم.

قال أبو النجم:

في لجَّة أمسك فلانا عن فلِ

والتجت الأصوات أي اختلطت وعظمت.{يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ} أي يعلو ذلك البحر اللجي موج.{مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} أي من فوق الموج موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب؛ فيجتمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب. وقيل: المعنى يغشاه موج من بعده موج؛ فيكون المعنى: الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ومن فوق هذا الموج سحاب. وهو أعظم للخوف من وجهين: **أحدهما**: أنه قد غطى النجوم التي يهتدي بها. **الثاني**: الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي ينزل منه.{ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} قرأ ابن محيصن والبزي عن ابن كثير{سَحَابٌۢ ظُلُمَـٰتٌ} بالإضافة والخفض.وقنبل:{سَحَابٌۢ} منونا{ظُلُمَـٰتٌ} بالجر والتنوين. الباقون بالرفع والتنوين. قال المهدوي: من قرأ :{مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۢ ظُلُمَـٰتٌ} بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها؛ كما يقال: سحاب رحمة إذا ارتفع في وقت المطر. ومن قرأ{سَحَابٌۢ ظُلُمَـٰتٌ} جر{ظُلُمَـٰتٌ} على التأكيد لـ{ظُلُمَـٰتٌ} الأولى أو البدل منها. و{سَحَابٌۢ} ابتداء و{مِّن فَوْقِهِۦ} الخبر. ومن قرأ{سَحَابٌۢ ظُلُمَـٰتٌ} فظلمات خبر ابتداء محذوف التقدير: هي ظلمات أو هذه ظلمات. قال ابن الأنباري{مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} غير تام؛ لأن قول{مِّن فَوْقِهِۦ

سَحَابٌۚ} صلة للموج، والوقف على قوله: {مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ} حسن ثم تبتدئ {ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ} على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض. وروي عن أهل مكة أنهم قرأوا {ظُلُمَٰتٌ} على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب. ثم قيل: المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر؛ فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا. وقيل: المراد بالظلمات الشدائد؛ أي شدائد بعضها فوق بعض. وقيل: أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الران والختم والطبع على قلبه. روي معناه عن ابن عباس وغيره؛ أي لا يبصر بقلبه نور الإيمان، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها. وقال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير. قوله {إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ} يعني الناظر. {لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ} أي من شدة الظلمات. قال الزجاج وأبو عبيدة: المعنى لم يرها ولم يكد؛ وهو معنى قول الحسن. ومعنى {لَمۡ يَكَدۡ} لم يطمع أن يراها. وقال الفراء: كاد صلة، أي لم يرها؛ كما تقول: ما كدت أعرفه. وقال المبرد: يعني لم يرها إلا من بعد الجهد؛ كما تقول: ما كدت أراك من الظلمة، وقد رآه بعد يأس وشدة. وقيل: معناه قرب من الرؤية ولم ير كما يقال: كاد العروس يكون أميرا وكاد النعام يطير وكاد المنتعل يكون راكبا. النحاس: وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة. {وَمَن لَّمۡ

يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا} يهتدي به حين أظلمت عليه الأمور. وقال ابن عباس: أي من لم يجعل الله له دينا فما له من دين، ومن لم يجعل الله له نورا يمشي به يوم القيامة لم يهتد إلى الجنة؛ كقوله{وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ} [الحديد: ٢٨]. وقال الزجاج: ذلك في الدنيا والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد.

وقال ابن كثير: فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى:{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ} قال قتادة:{لُّجِّىٍّ} هو العميق، {يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا} أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما{يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ} يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله:{خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ} [البقرة: ٧] الآية. وكقوله:{وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً} [الجاثية: ٢٣] الآية. فالكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقوله تعالى:{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل بائر كافر، كقوله:{مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ} [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين{يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ} [النور: ٣٥]، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، ومن فوقنا نوراً ومن تحتنا

نوراً ومن بين أيدينا نوراً ومن خلفنا نوراً وفي سمعنا نوراً وفي بصرنا نوراً وفي قبورنا نوراً وعلى الصراط نوراً وأن يعظم لنا نوراً. آمين

هذا، وفي الآية إعجاز علمي عظيم يُعدّ من دلائل نبوته ﷺ يلفت الأنظار إلى نوع من الأمواج في باطن المحيطات وبين لُجج المياه العميقة لم يعرفه السابقون، ولم يكتشفه علماء العصر الحديث إلا مؤخراً، أحاط به علم الله الواسع المحيط وأشار إليه في هذه الآية{مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} فمن علّمه للنبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته قط؟!! إنه حقاً كلام الله ربِّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ} [محمد: ٣].

***

المثل الرابع والثلاثون

كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه

المثل الرابع والثلاثون:
كمثل غيث أعجب الكفار نباته

يقول الله تقدست أسماؤه:

{ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ } [الحديد: ٢٠].

قال الشوكاني ﷫ في فتح القدير:

لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جدا إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة ولهو يلهون به أنفسهم عما يهمهم وزينة كالملابس الحسنة والمواكب البهية والمنازل الرفيعة وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعَدد والعُدد ثم قرر ذلك بقوله:{كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ}.

وهو تمثيل لها في سرعة زوالها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأُعجب به الحُرَاث أو الكافرون بالله لأنهم أشدُّ إعجابا بزينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجبا انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجابا، ثم هاج أي يبس بعاهة فاصفر ثم صار حطاما، ثم عظّم أمور الآخرة الأبدية بقوله:{وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ} تنفيرا عن الانهماك

في الدنيا وحثًا على ما يوجب كرامة العقبى ثم أكد ذلك بقوله:{وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ} أي لمن أقبل عليها ولم يطلب إلا الآخرة:{وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ} أي لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة.

وقال ابن كثير:

ثم ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال:{كَمَثَلِ غَيْثٍ} وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ} [الشورى: ٢٨]، وقوله تعالى:{أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ} أي يُعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث كما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها.

{ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا} أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعدما كان خضرا نضرا ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أن يصير يبسا متحطما هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزا شوهاء، والإنسان يكون كذلك أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًا لين الأعصاف بهي المنظر ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى:{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾} [الروم: ٥٤]، ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيها من الخير فقال:{وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ} أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا إما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان وقوله تعالى:{وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ

ٱلْغُرُورِ﴾ أي هي متاع فانٍ زائل لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ولا معاد وراءها وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾» وهذا حديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة والله أعلم وقال الإمام أحمد (١/ ٣٨٧ و٤٤٢) حدثنا ابن نمير ووكيع كلاهما عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم إلى شراك نعله والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) من حديث الثوري عن الأعمش به ففي هذا الحديث على اقتراب الخير والشر من الإنسان وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثّ الله تعالى على المبادرة على الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحل له الثواب والدرجات فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال هاهنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وهكذا تتقارب ألفاظ القرآن العظيم، وتتشابه أمثاله في تحقير شأن الدنيا والتهوين من أمرها حتى لا يركن الناس إليها وينسوا الآخرة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

***

المثل الخامس والثلاثون

كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

المثل الخامس والثلاثون:
كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

يقول الله جل وعلا:

{مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

قال القرطبي:

قوله: {مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ} قال الأخفش {كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ} وقف تام، ثم ذكر قصتها فقال {ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ} قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن {ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ} صلة للعنكبوت كأنه قال: (كمثل التي اتخذت بيتا) فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول وهو بمنزلة قوله {كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به. {وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ} أي أضعف البيوت. {لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ} قال الضحاك: ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت

العنكبوت.{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }، متعلقة ببيت العنكبوت أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئا وأن هذا مثلهم لما عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هطالهم منهم بيوت :::: كأن العنكبوت قد ابتناها

ثم قال: قوله:{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}،{مَا} بمعنى الذي{مِن} للتبعيض ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى، والمعني: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه، وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب{يَدْعُونَ } بالياء وهو اختيار أبي عبيد لذكر الأمم قبلها الباقون بالتاء على الخطاب، قوله{ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ} أي هذا المثل وغيره مما ذكر في - البقرة - (البعوضة) و- الحج - (الذباب) وغيرهما{نَضْرِبُهَا } نبينها{لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا } أي يفهمها{إِلَّا الْعَالِمُونَ} أي العالمون بالله كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال:«**العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه**»، وعند الدارمي: قال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، قال: (العالم من يخاف الله).

وقال ابن كثير:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم

المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: { وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ} أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول:{ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ}[١].

قال الزمخشري:

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة، وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله {وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ} فإن قلت: ما معنى قوله{لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ } وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت قلت: معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن، ووجه آخر: وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون.. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمدون عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون، قرئ: تدعون بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً{وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شئ الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمه وتدبير.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ} كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال{وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ} أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا العالمون لأنها تكشف عنها وتصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

المثل السادس والثلاثون

هل لكم مما ملكت أيمانكم
من شركاء

المثل السادس والثلاثون:
هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

يقول الله عز وجل:

{﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [الروم: ٢٧ - ٢٩].

قال ابن كثير:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى:{ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ} أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم{هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ } أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء؟{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ} أي تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} [النحل: ٦٢]، فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من

عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة، من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، قال تعالى:{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }، ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً:{بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ } أي المشركون{أَهْوَآءَهُم } أي في عبادتهم الأنداد بغير علم،{فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ} أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم،{وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ } أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

وقال الشوكاني في فتح القدير:

أي مثلا منتزعا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا، ثم بين المثل المذكور فقال:{هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ } من في مما ملكت للتبعيض وفي من شركاء زائدة للتأكيد والمعنى هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم وهم العبيد والإماء والاستفهام للإنكار وجملة:{فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ } جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ومحققه لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم أي هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم.

{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} الكاف نعت مصدر محذوف أي تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم أي كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة الشركة بينهم وبين المملوكين والاستواء معهم وخوفهم إياهم وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم: (ما تأتينا فتحدثنا) والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بد أن يقولوا لا نرضى بذلك فيقال لهم فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم في البشرية وتجعلون عبيد الله شركاء له فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له، قرأ الجمهور أنفسكم بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله.{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ} تفصيلا واضحا وبيانا جليا.

{لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال:

{بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل{بِغَيْرِ عِلْمٍ} النصب على الحال أي جاهلين بأنهم على ضلالة{فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ} أي لا أحد يقدر على هدايته لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته{وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ} أي ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من

ناصرين ينصرونهم ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه.

وهذا المثل يشبه قوله تعالى في سورة النحل:

{ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ } [النحل: ٧١].

{ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

***

المثل السابع والثلاثون

أصحاب القرية

المثل السابع والثلاثون:
أصحاب القرية

يقول الله تبارك وتعالى:

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾} [يس: ١٣ - ٣٢].

قال ابن كثير:

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك {مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس

وكعب الأحبار: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: أنطيقس كان يعبد الأصنام، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم.

وقوله تعالى:{إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا} أي بادروهما بالتكذيب،{فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ} أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث قال ابن جريج: كان اسم الرسولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولص والقرية أنطاكية، وقال ابن كثير: وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية،{فَقَالُوٓاْ} أي لأهل تلك القرية{إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ} أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له،{ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا} أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر! فلم لا أوحي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم:{ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا} [التغابن: ٦] ! أي استعجبوا من ذلك وأنكروه، كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤] ! ولهذا قال هؤلاء:{مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ} أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كذبنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى:{ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا} [العنكبوت: ٥٢]، { وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ} يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم، كانت السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون مغبة كفركم، فعند ذلك قال لهم أهل القرية:{إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ}

أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا، وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها،{لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ}، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم{وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم:{طَائِرُكُم مَّعَكُمْ} أي مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ} [الأعراف: ١٣١] ، وقال قوم صالح: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ} [النمل: ٤٧]، وقال قتادة ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم، وقوله تعالى:{أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} أي من أجل هذا أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}، وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون. إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب وكان يعمل الحرير، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ذكره ابن إسحاق عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، وقال ابن عباس: اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه، وقال السدي: كان قصاراً، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك،{قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم{اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} أي على إبلاغ الرسالة{وَهُم مُّهْتَدُونَ} فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له،{وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له،{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن

شرا فشر،{ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً } ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع{إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ} أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه، لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء، {فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٧] ، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه{ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى:{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ } قال ابن إسحاق: يقول لقومه{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ} الذي كفرتم به{فَٱسْمَعُونِ } أي فاسمعوا قولي، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ} أي الذي أرسلكم {فَٱسْمَعُونِ } أي فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول أظهر في المعنى والله أعلم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره، وقال الله له:{ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ} فدخلها، فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب{قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ } قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ولا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى{قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ

ٱلۡمُكۡرَمِينَ} تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله، وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله:{يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ}، وبعد مماته في قوله:{يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ} (١)، قال سفيان الثوري عن أبي مجلز:{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ} بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

وقال محمد بن إسحاق، عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب بن زيد الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة، حين جعل يسأل عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله، فيقول: لا أسمع، فيقول له مسيلمة لعنه الله: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك! فيقول: نعم، فجعل يقطعه عضواً عضواً كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب.
وقوله تبارك وتعالى:{وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليّه، ويذكر عزَّ وجلَّ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك قاله ابن مسعود والمعنى ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك،{إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ} فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل انطاكية

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ♥.

فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية، وقيل:{وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله تعالى{وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} أي من رسالة أُخرى إليهم قاله مجاهد وقتادة وقول ابن مسعود أظهر والله أعلم قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله{إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ} قال ابن جرير: والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جنداً. قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرتهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد.

قال ابن عباس{يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ} أي يا ويل العباد، وقال قتادة:{يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ} أي يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله، والمعنى: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله؟ فإنهم كانوا{مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ} أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق، ثم قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ} أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرّة ولا رجعة، وقوله عزَّ وجلَّ:{ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جلَّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذا كقوله جلَّ وعلا:{وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ} [هود: ١١١].

وهكذا ضُربت قرية (يس) مثلاً لكل قرية كذبت المرسلين ولكل

قوم أبوا نصيحة الناصحين؛ فاستحقوا الدمار في الدنيا والعذاب يوم يقوم الناس لرب العالمين، نعوذ بالله العظيم من سوء المآل والمصير إنه نعم المولى ونعم النصير.

{ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾} [الفرقان: ٣٩].

* * *

المثل الثامن والثلاثون

رجلاً فيه شركاءُ متشاكسون

المثل الثامن والثلاثون:
رجلا فيه شركاء متشاكسون

يقول الله تعالى:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾} [الزمر: ٢٩].

قال القرطبي:

قوله تعالى{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال الكسائي: نصب{رَّجُلًا} لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلا برجل{فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال الفراء: أي مختلفون. وقال المبرد: أي متعاسرون من شكس يشكس شكسا بوزن قفل فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر، يقال: رجل شكس وشرس وضرس وضبس. ويقال: رجل ضبس وضبيس أي شرس عسر شكس؛ قاله الجوهري. وقال الزمخشري: والتشاكس والتشاخس الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاحنني في حقي. قال الجوهري: رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق. قال الراجز:

شكس عبوس عنبس عذور

وقوم شكس مثال رجل صدق وقوم صدق. وقد شكس بالكسر شكاسة. وحكى الفراء: رجل شكس. وهو القياس، وهذا مثل من عبد

آلهة كثيرة.{وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} أي خالصا لسيد واحد، وهو مثل من يعبد الله وحده.{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم؟ وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة{وَرَجُلًا سَلَمًا} وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب{وَرَجُلًا سَلَمًا} واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضد الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك. ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة. واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة{سَلَمًا} قال وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر{سَلَمًا} بكسر السين وسكون اللام. وسِلما وسَلما مصدران؛ والتقدير: ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و{مَثَلًا} صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفاتهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي لا يعلمون الحق فيتبعونه.

وقال السيوطي في الدُر المنثور: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

ابن عباس ﷺ {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال: الرجل يعبد آلهة شتى. فهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الأوثان {وَرَجُلًا سَلَمًا } يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﷺ في قوله {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال: هو المشرك تنازعه الشياطين لا يعرفه بعضهم لبعض {وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: هذا المؤمن أخلص لله الدعوة والعبادة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﷺ في قوله {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: آلهة الباطل وإله الحق، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﷺ {شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} يعني الصنم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله{وَرَجُلًا سَلَمًا } قال: ليس لأحد فيه شيء، وأخرج ابن أبي حاتم عن مبشر بن عبيد القرشي ﷺ قال: قراءة عبد الله بن عمر ﷺ{وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: خالصا. فإنما يعني مستسلما لرجل.

{ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ } [المائدة: ٧٥].

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا } [الإسراء: ٤١].

❊ ❊ ❊

المثل التاسع والثلاثون

أنهار الجنة

المثل التاسع والثلاثون:
أنهار الجنـة

يقول الله تباركت أسماؤه:

{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)} [محمد: ١٥].

قال القرطبي:

وصف تلك الجنات، أي صفة الجنة المُعدّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في (الرعد). وقرأ علي بن أبي طالب{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}.{فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} أي غير متغير الرائحة. والآسن من الماء مثل الآجن. وقد أسن الماء يأسن ويأسن أسنا وأسونا إذا تغيرت رائحته. وكذلك أجن الماء يأجن ويأجن أجنا وأجونا. ويقال بالكسر فيهما: أجن وأسن يأسن ويأجن أسنا وأجنا، قاله اليزيدي. وأسن الرجل أيضا يأسن الكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه.

قال زهير:

قد أترك القِرن مصفرا أنامله ::: يميد في الرمح ميد المائح الأسنِ

ويروى: (الوسن). وتأسن الماء تغير. وقال أبو زيد: تأسن عليّ تأسنا اعتلّ وأبطأ. وقال أبو عمرو: تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه. وقال اللحياني: إذا نزع إليه في الشبه، وقراءة العامة{آسِنٍ} بالمد.

وقرأ ابن كثير وحميد{ءَاسِنٍ} بالقصر، وهما لغتان، مثل حاذر وحذِر. وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن مثل فاعل يراد به الاستقبال.

قوله تعالى{وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة.{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا ينكرها الشاربون. يقال: شراب لذ ولذيذ بمعنى. واستلذه عدّه لذيذا.{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} العسل ما يسيل من لعاب النحل. {مُّصَفًّى} أي من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل. وفي الترمذي عن حكيم بن معاومة عن أبيه عن النبي ﷺ قال:«**إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد**» (قال: حديث حسن صحيح).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة**». وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس{مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} أي لم يخرج من بطون النحل.{وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ}، زائدة للتأكيد.{وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} أي لذنوبهم.{كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ} قال الفراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار. فقوله{كَمَنْ} بدل من قوله:{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ} [فاطر: ٨]. وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم؟ ومثل أهل الجنة في

النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم؟{وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا} أي حارا شديد الغليان، إذا أدنى منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع معي، والتثنية معيان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

وقال الشوكاني في فتح القدير: ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيّن الفرق في مرجعهما ومآ لهما فقال:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ} والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها، ومعنى مثل الجنة وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ وخبره محذوف قال النضر بن شميل تقديره ما يسمعون وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة قال والمثل هو الوصف ومعناه وصف الجنة وجملة{فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ} الخ مفسرة للمثل وقيل إن مثل زائدة وقيل إن مثل الجنة مبتدأ والخبر فيها أنهار وقيل خبره كمن هو خالد، وقرأ الجمهور آسن بالمد وقرأ حميد وابن كثير بالقصر وهما لغتان كحاذر وحذر، وقال الأخفش إن الممدود يراد به الاستقبال والمقصور يراد به الحال:{وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} أي لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر:{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} أي لذيذة لهم طيبة الشرب لا ينكرها الشاربون يقال شراب لذ ولذيذ وفيه لذه بمعنى ومثل هذه الآية قوله:{بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} [الصافات: ٤٦]، قرأ الجمهور لذة بالجر صفة لخمر وقرئ بالنصب على إنه مصدر أو مفعول له وقرئ بالرفع صفة لأنهار:{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} أي مصفى مما يخالطه من الشمع

والقذى والعكر والكدر. {وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ} أي لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات أي من كل صنف من أصنافها و{مِن} زائدة للتوكيد: {وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} لذنوبهم وتنكير مغفرة للتعظيم أي ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم.

{كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ} هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالدا فيها كمن هو خالد في النار؟ أو خبر لقوله مثل الجنة كما تقدم ورجح الأول الفراء فقال أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟ وقال الزجاج أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار؟ فقوله كمن بدل من قوله أفمن زين له سوء عمله.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﵁ في قوله {مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ} قال: غير منتن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﵁{وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} قال: قال ابن عباس ﵄ : لم يحلب.

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ﵁ في قوله {وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} قال: لم يخرج من بين فرث ودم {وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} قال: لم تدنسه الرجال بأرجلهم {وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} قال: لم يخرج من بطون النحل.

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في مسنده والبيهقي عن كعب ﵁ قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة. ونهر سيحان نهر الماء في الجنة.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن

أبي وائل ﷺ قال: جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى ابن مسعود ﷺ فقال: يا أبا عبد الرحمن كيف تقرأ هذا الحرف؟ أياء تجده أم ألفا؟ من ماء غير ياسن أو من ماء غير آسن؟ فقال له عبد الله ﷺ : وكل القرآن أحصيت غير هذا؟ فقال إني لأقرأ المفصل في ركعة. قال: هذا كهذا الشعر إن قوما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن القرآن إذا وقع في القلب فرسخ نفع، إني لأعرف النظائر التي كان يقرأ بهن رسول الله ﷺ وأخرج ابن جرير عن سعد بن طريف ﷺ قال: سألت أبا إسحق ﷺ عن{مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ} قال: سألت عنها الحارث فحدثني أن الماء الذي غير آسن تسنيم، قال: بلغني أنه لا تمسه يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل فمه والله تعالى أعلم.

اللهم لا تحرمنا غفرانك ورضوانك وأنهار الجنة ونعيمها، وقنا سخطك والنار.

***

المثل الأربعون

مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

المثل الأربعون:
مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

يقول الله جل وعلا:

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾} [الفتح: ٢٩].

قال ابن كثير:

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال:{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ} وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثَّنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال:{وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ }، كما قال عزَّ وجلَّ: {أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ} [المائدة: ٥٤]، وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى:{وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ} [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ :«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (١).

في الصحيح:«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبّك بين

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى:{تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا} وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عزَّ وجلَّ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عزَّ وجلَّ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جلا وعلا:{وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢]، وقوله جل جلاله:{سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ} قال ابن عباس: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسّن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار (١).

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس، وقال عثمان ﷺ : (ما أسّر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه) والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عزَّ وجلَّ ظاهره للناس، كما روي عن عمر ﷺ أنه قال: (من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته) وقال النبي ﷺ :«**ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر**» (٢).

في الحديث:«**إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء**

(١) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.
(٢) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.

من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[1].

الصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك ﷺ: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا:{ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ}، ثم قال: {وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ} أي فراخه{فَـَٔازَرَهُۥ} أي شدّه {فَٱسْتَغْلَظَ} أي شبّ وطال{فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ} أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ}، ومن هذه الآية أخذ الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك.

والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى:{وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم} (من) هذه لبيان الجنس{مَّغْفِرَةً} أي لذنوبهم{وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، ﷺ وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس

(١) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

مأواهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[1].

قال السيوطي في الدُّر المنثور:

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم} قال: أما إنه ليس بالذين ترون، ولكنه سيما الإسلام وسحنته وسمته.

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: «النور يوم القيامة».

وأخرج البخاري في تاريخه وابن نصر عن ابن عباس ﷺ في قوله{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة.

وأخرج أبو عبيد وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر عن عمار مولى بني هاشم قال: سألت أبا هريرة ﷺ عن القدَر قال: اكتفِ منه بآخر سورة الفتح {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} إلى آخر السورة، يعني أن الله نعتهم قبل أن يخلقهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﷺ في قوله {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} قال: جعل الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: علامتهم الصلاة{ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} قال: هذا المثل في التوراة{وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ} قال: هذا مثل آخر {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} قال: هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل. قيل له: أنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﭭ في قوله {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة {ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} قال: سنبله حين يبلغ نباته عن حباته{فَآزَرَهُ} يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه لمحمد ﷺ يقول: يبعث الله النبي وحده ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به ثم يكون القليل كثيرا وسيغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار يعجب الزراع من كثرته وحسن نباته، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ﵀ {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} قال: يقول حب بُر متفرقا فأنبتت كل حبة واحدة ثم أنبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول: كان أصحاب محمد ﷺ قليلا ثم كثروا واستغلظوا.

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس ﭭ في قوله{كَزَرْعٍ} قال: أصل الزرع عبد المطلب أخرج شطأه محمد ﷺ فآزره بأبي بكر فاستغلظ بعمر فاستوى على سوقه بعلي ليغيظ بهم الكفار.

هذا مثل رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام الطيبين ﭫ أجمعين في التوراة والإنجيل وطاب مثلهم والله، فاللهم ارزقنا الاقتداء بهم والسير على دربهم واحشرنا في زمرتهم وألحقنا بهم في الفردوس الأعلى.

***

المثل الحادي والأربعون

يأكل لحم أخيه ميتاً

المثل الحادي والأربعون:
يأكل لحم أخيه ميتا

يقول الله عز وجل:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝١٢} [الحجرات: ١٢].

قال القرطبي:

قوله تعالى{وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ} نهى عز وجل عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:«**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:«**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**». يقال: اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه، والاسم الغِيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. قال الحسن: الغِيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان. فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه. وعن شعبة قال: قال لي معاوية - يعني ابن قرة - : لو مر بك رجل أقطع، فقلت هذا أقطع كان غيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق. وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزا جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله ﷺ فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما

للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجمَ الكلب، فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال: «فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

قوله تعالى{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا} مثل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيّاً. واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ::: وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وقال ﷺ: «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس». فشبه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتا. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (١).

وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة

(١) رواه أبو داود.

فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». وقد تقدم قوله ﷺ :«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين»، وقوله للرجلين:«ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما». وقال أبو قلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما في الغيبة. وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده، ينهاه فإن انتهى وإلا قام. وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبي ﷺ فرأوا في قيامه عجزا فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا فقال:«أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه». وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغيبة أن تقول: إن فلانا جعد قطط إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

قوله تعالى:{مَيْتًا} وقرئ{مَيِّتًا} وهو نصب على الحال من اللحم. ويجوز أن ينصب على الأخ، ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى:{فَكَرِهْتُمُوهُ} وفيه وجهان: أحدهما: فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة، روي معناه عن مجاهد. الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس. وقال الفراء: أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه. وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر، أي اكرهوه.{وَاتَّقُوا اللَّهَ} عطف عليه. وقيل: عطف على قوله{اجْتَنِبُوا .. وَلَا

تَجَسَّسُواْ}.{إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}، وقال الزمخشري: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ} تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدهم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لايحب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا، إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا. وعن قتاده: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب (ميتا) على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ. وقرئ ميِّتا. ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى:{فَكَرِهۡتُمُوهُۚ} معناه: فقد كرهتموه، واستقر ذلك وفيه معنى الشرط: أي إن صح هذا فكرهتموه وهي على الفاء الفصيحة: أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقرئ فكُرّهتموه: أى جبلتم على كراهته. فإن قلت: هلا عدى بإلى كما عدى في قوله - وكره إليكم الكفر - وأيهما القياس ؟ قلت: القياس تعديه بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه، تقول كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول أما تعديه بإلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض، لأن بغض منقول من بغض الشيء فهو بغيض إليه.

{وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

❊ ❊ ❊

المثل الثاني والأربعون

كمثل الحمار يحمل أسفارا

المثل الثاني والأربعون: كمثل الحمار يحمل أسفارا

يقول الله جل شأنه:

{مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾} [الجمعة: ٥].

قال القرطبي: ضُرب مثلا لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ {حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ} أي كلفوا العمل بها، عن ابن عباس. وقال الجرجاني: هو من الحمالة بمعنى الكفالة؛ أي ضمنوا أحكام التوراة.{كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا} هي جمع سِفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زنبيل؛ فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء. وقال الشاعر:

زوامل (١) للأسفار لا علم عندهم ::: بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ::: بأوساقه أوراح ما في الغرائر

وقال يحيى بن يمان: يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهم ولا يتدبر، فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلس كأنه مكاتب. وقال الشاعر:

إن الرواة على جهل بما حملوا ::: مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ::: ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

وقال منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله فأحسن:

(١) زوامل: الإبل التى تحمل الأحمال الثقيلة، وأحدها: زاملة (القاموس المحيط).

ا نعق بما شئت تجد أنصارا ::: وزم أسفارا تجد حمارا
يحمل ما وضعت من أسفار ::: يحمله كمثل الحماريحمل أسفارا
وما درى إن كان ::: ما فيها صوابا أم خطا
إن سئلوا قالوا كذا روينا ::: ما إن كذبنا ولا اعتدينا

{ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} أي لم يعملوا بها، شبههم - والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها - بالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة.

و{يَحْمِلُ} في موضع نصب على الحال؛ أي حاملا. ويجوز أن يكون في موضع جر على الوصف؛ لأن الحمار كاللئيم. قال:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ} المثل الذي ضربناه لهم؛ فحذف المضاف. {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي من سبق في علمه أنه يكون كافرا.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى ذاماً لليهود، الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]،

وقال تعالى ههنا:{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

ٱلظَّٰلِمِينَ}. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :«من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول لـه: أنصـت، ليس له جمعة» [1].

قال الزمخشري في الكشاف:

شبّه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها وذلك أنّ فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفاراً أي كتباً كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل{بِئۡسَ} مثلاً{مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ} وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ ومعنى:{حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ} : كُلفوا علمها والعمل بها{ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا } ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها، وقرئ:{حَمَلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ} أي حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل، وقرئ:{يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ} فإن قلت:{يَحۡمِلُ} ما محله قلت: النصب على الحال أو الجر على الوصف.

{بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥} [الجمعة: ٥].

{سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧} [الأعراف: ١٧٧].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.

المثل الثالث والأربعون

امرأة نوح وامرأة لوط

المثل الثالث والأربعون:
امرأة نوح وامرأة لوط

يقول الله جل وعلا:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾} [التحريم: ١٠].

قال ابن كثير:

قال تعالى: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟} أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، إذ لم يكن الإيمان خالصاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: {ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ} أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، {فَخَانَتَاهُمَا} أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة، فلم يجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} أي لكفرهما، {وَقِيلَ} أي للمرأتين {ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ}، وليس المراد بقوله {فَخَانَتَاهُمَا} في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس {فَخَانَتَاهُمَا} قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وقال الضحّاك: عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما

في الدين وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وهو الصحيح كما قال ابن عباس: خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما.

وقال القرطبي: ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين. وكان اسم امرأة نوح والهة، واسم امرأة لوط والعة؛ قاله مقاتل. وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها: إن جبريل نزل على النبي ﷺ فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والهة.{فَخَانَتَاهُمَا} قال عكرمة والضحاك. بالكفر. وقال سليمان بن رقية والضحاك: بالكفر. وقال سليمان بن رقية عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأه نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحاك. وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال.{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما - لما عصتا - شيئا من عذاب الله؛ تنبيها بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة. ويقال: إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمدا ﷺ يشفع لنا؛ فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما. وقيل لهما{وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} في الآخرة؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم. ثم قيل: يجوز أن تكون{ٱمْرَأَتَ نُوحٍ} بدلا من قوله: {مَثَلًا} على تقدير

حذف المضاف؛ أي ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح. ويجوز أن يكونا مفعولين.

وقال الزمخشري في الكشاف:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} مثل الله عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لِحمة نسب أو صلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناء ما من عذاب الله{وَقِيلَ} لهما عند موتهما أو يوم القيامة:{ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ} سائر{ٱلدَّٰخِلِينَ} الذين لاصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط، ومثل حال المؤمنين - في أن صلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً، وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر، ونحوه في التغليظ قوله تعالى{وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في

الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وان لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله. وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره، فإن قلت ما فائدة قوله:{مِنۡ عِبَادِنَا}.

قلت: لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائناً من كان وانه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله: قال عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانه لأن عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده.

فإن قلت: ما كانت خيانتهما؟ قلت: نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط دلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقاً وعن ابن عباس ﷺ : ما بغت امرأة نبي قط.

{ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

***

المثل الرابع والأربعون

امرأة فرعون

المثل الرابع والأربعون:
امرأة فرعون

يقول الله عزّ وجلّ:

{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} [التحريم: ١١].

قال الزمخشري في الكشاف:

وامرأة فرعون: آسية بنت مزاحم، وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون عن أبي هريرة: أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقي بروحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه.

وعن الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة: أريت بيتها في الجنة يُبنى، وقيل: إنه من دُرّة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة، فإن قلت: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة قلت طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها:{فِى ٱلْجَنَّةِ} أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها:{عِندَكَ}،{مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ} من عمل فرعون، أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه

الغشوم وخصوصاً من عمله وهو: الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم{وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} من القبط كلهم، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل: من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين:{ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾} [الشعراء: ١١٨]،{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾} [يونس: ٨٥ - ٨٦].

وقال ابن كثير:

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى:{إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً} [آل عمران: ٢٨]، قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، وروى ابن جرير، عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة، فقولها:{رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ} قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار،{وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ} أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله{وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم ، عذَّبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهي صابرة، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذِّبها وهي تضحك، فقبض الله روحها في الجنة .
وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال:«كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت

عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[(١)].

قال القرطبي:

وقوله تعالى{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} واسمها آسية بنت مزاحم. قال يحيى بن سلام: قوله{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟} [التحريم: ١٠]، مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران؛ ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين. وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة؛ أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وكانت آسية آمنت بموسى. وقيل: هي عمة موسى آمنت به. قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها. فقال لهم: إنها تعبد ربا غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت{رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ} ووافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة. فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذبها وهي تضحك؛ فقبض روحها. وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذب بالشمس، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها. وقيل: سمر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى؛ فأطلعها الله. حتى رأت مكانها في الجنة. وقيل: لما قالت{رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ} أريت بيتها في الجنة يبنى. وقيل: إنه من درة؛ عن الحسن. ولما قالت{وَنَجِّنِى} نجاها الله

(١) أخرجه الشيخان.

أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم.{مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ} تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته،{وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ}، قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة؛ فهي فيها تأكل وتشرب.

{تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم: ٢٥].

هذا، ومن لطائف وعجائب الرسم العثماني في كلمة: (امرأت) أنها إذا جاء بعدها اسم زوجها رسمت بالتاء المفتوحة، كما في:

(امرأت نوح) و(امرأت لوط) و(امرأت فرعون) و(امرأت عمران) و(امرأت العزيز) وهكذا، وكأنها مع زوجها لا حرج عليها أن تنفتح؛ لأنه حليلها وحاميها وراعيها، أما مع غير زوجها فإنها تنغلق وتأتي منغلقة مربوطة هكذا: (امرأة) كما في قوله تعالى:{وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [النساء: ١٢٨] الآية، وكما في قوله تعالى:{وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ} [النساء: ١٢] الآية ونحوها، وكأنها إشارة إلى أدب المرأة المسلمة، فمع زوجها ومحارمها لا جُناح عليها أن تنفتح، أما مع غير الزوج والمحارم فإنها منغلقة متحفظة متسترة. فسبحان الله رب العالمين! حتى نعلم أن هذا الرسم العثماني كما اشتهر بنسبته إلى سيدنا عثمان ﷺ وأرضاه رسم توقيفي حافل بالأسرار والعجائب واللطائف التي ليس ههنا مجال تفصيلها؛ ولهذا لا يصح أن نحيد عنه عند كتابة القرآن إلى الرسم الإملائي.

ليظل محتفظاً بإعجازه وعجائبه وأسراره في رسمه وخطّه.

***

المثل الخامس والأربعون

لو أنزلنا هذا القرآن
على جبل

المثل الخامس والأربعون:
لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

يقول الله تبارك وتعالى:

{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الحشر: ٢١].

قال القرطبي:

قوله تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا} حث على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله، والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق. وقيل{خَٰشِعًا} لله بما كلفه من طاعته، {مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} أن يعصيه فيعاقبه. وقيل: هو على وجه المثل للكفار. {وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} أي أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، وتصدع من نزوله عليه؛ وقد أنزلناه عليك وثبتناك له؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنه خطاب للأمة، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله. والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على رده إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبينا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل فكيف يليق بكم يا أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا} إلى آخرها يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، ثم قال تعال:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} وكذا قال قتادة وابن جرير وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عُمل له المنبر وكان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حنّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم وقد قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ

كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ} [الرعد: ٣١] الآية، وقد قال تعالى:{وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} [البقرة: ٧٤].

وقال الشوكاني في فتح القدير:

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة فقال:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ} أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجِرم خاشعا متصدعا أي متشققا من خشية الله سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من أن لا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام الله وهذا تمثيل وتخييل يقتضى علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب ويدل على هذا قوله:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ وينزجروا بالزواجر وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: الذليل المتواضع، وقيل الخطاب للنبي ﷺ أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي.

وقال الزمخشري: هذا تمثيل وتخييل كما مرّ في قوله تعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ } [الأحزاب: ٧٢]، وقد دل عليه قوله:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره، وقرئ: " مصدّعاً " على الإدغام " وتلك الأمثال " إشارة إلى هذا.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

اللهم ارزقنا خشوع القلب لذكرك وما أنزلت

من الحق وارزقنا خشيتك

ومخافة مقامك العظيم يا عليُّ يا عظيم يا ذا الجلال

والإكرام يا حي يا قيوم

* * *

المثل السادس والأربعون

ذكرى للبشر

المثل السادس والأربعون:
ذكرى للبشر

يقول الله جلّ وعلا:

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)} [المدثر: ٣١].

قال ابن كثير: يقول تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} أي خُزّانها{إِلَّا مَلَائِكَةً} أي زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} أي شديدي الخلق لا يقاوَمون ولا يغالَبون، وقد قيل: إن أبا الأشدين قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن، نسب ابن اسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد، قال ابن كثير ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم وقوله تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس،{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} أي

يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى:{وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا} أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ،{وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي من المنافقين،{وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا}؟ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى:{كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وقوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة:«**فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم**» (١).

وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ:«**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى**» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد (٢).

وعن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ:«**ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنّا لم نشرك بك شيئاً**» (٣).

(١) أخرجه في الصحيحين.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب.
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.

وعن ابن مسعود أنه قال: إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم، ثم قرأ: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾} [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦] [1].

وروى محمد بن نصر، عن عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق السماوات والأرض لم يرفعوا رءُوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رءُوسهم نظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**» [2].

وقوله تعالى: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} أي النار التي وصفت {إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ}.

وقال القرطبي:

قوله تعالى {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾} [المدثر: ٣٠]، أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، مالك وثمانية عشر ملكا. ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم. وعلى هذا أكثر المفسرين. الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. وقال ابن جريج: نعت النبي ﷺ خزنة جهنم

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه محمد بن نصر، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

فقال: «فكأن أعينهم البرق، وكأن أفواههم الصياصي - أي الحصون والقلاع -، يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل». قلت: وذكر ابن المبارك قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية{وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾} [المدثر: ٢٧ - ٣٠]، فقال ما تسعة عشر؟ تسعة عشر ألف ملك، أو تسعة عشر ملكا؟ قال: قلت: لا بل تسعة عشر ملكا. فقال: وأنى تعلم ذلك؟ فقلت: لقول الله عز وجل: {وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} قال: صدقت هم تسعة عشر ملكا، بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفا. وعن عمرو بن دينار: كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر.

خرّج الترمذي عن جابر بن عبد الله. قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غلب أصحابك اليوم؛ فقال: (وماذا غلبوا)؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: (فماذا قالوا) قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا. قال: «أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة، علي بأعداء الله! إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدرمك». فلما جاؤوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال: «هكذا وهكذا» في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ : «ما تربة الجنة» قال: فسكتوا هنيهة ثم قالوا: أخبزة يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ : «الخبز من الدرمك».

(قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر).

وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبدالرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغـرب». وقال ابن عباس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم، قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم - أي العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة؛ يقولها مستهزئا. في رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى{وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً} أي لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة، ولا يستروحون إليهم؛

ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له، فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشد خلق الله بأسا وأقواهم بطشا.﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي بلية. وروي عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذابا، كما قال تعالى﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣ - ١٤]: أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب، ثم قال: وقوله تعالى إخبارا عنهم﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ أي ما أراد﴿بِهَٰذَا﴾ العدد الذي ذكره حديثا، أي ما هذا من الحديث. قال الليث: المثل الحديث؛ ومنه﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي حديثها والخبر عنها﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي يخزي ويعمي﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى﴾ أي ويرشد﴿مَن يَشَآءُ﴾ كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ عن الجنة﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى﴾ إليها من يشاء﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي إلا الله جل ثناؤه وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وقال الأوزاعي:**«قال موسى يا رب من في السماء؟ قال ملائكتي. قال كم عدتهم يا رب؟ قال: اثنى عشر سبطا. قال: كم عدة كل سبط؟ قال: عدد التراب»** ذكره الثعلبي. وفي سنن الترمذي عن النبي ﷺ :**«أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا»**.

قوله تعالى﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل﴿وَمَا هِىَ﴾ أي وما هذه النار التي هي سقر﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي عظة﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قال الزجاج. وقيل: أي ما هذه العدة﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله

تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى{وَمَا هِيَ} ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور، والله أعلم بمراده.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

اللهم قنا مس سقر وزحزحنا عنها ونجنا من عذابها وأدخلنا الجنة بسلام ومتعنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم وأسعدنا بشفاعة نبيك يا رءوف يا رحيم.

* * *

خاتمـــة

خاتمة

وبعد، فهذه أمثال القرآن مجتمعة ومرتبة حسب ورودها في المصحف الشريف، قد تناولتها بالشرح والتفسير حتى تتضح معانيها وتتكشف مراميها، ويظهر مغزاها ويُعرف فحواها، واعتمدت في ذلك أقوال المفسرين المشهورين؛ حيث تكاملت أقوالهم وتآزرت تفسيراتهم في بيان أمثال القرآن؛ فعمدت إلى تنويع النقول عنهم لتكتمل الفائدة ويتحقق المنشود من الفهم الكامل والإحاطة بمعاني الأمثال في القرآن الكريم، عسى أن يكون ذلك مُعينا لنا على فهم تلك الأمثال ومَعينا ننهل منه كلما ظمئنا إلى معرفة ما استعجمناه أو جهلناه من أمثال القرآن في كتاب واحد يسير محمله قريب متناوله بدلاً من تجشم الغوص في بطون أمهات التفاسير التي عُنيت بتفسير كتاب الله كله سائلاً الله جل وعلا أن يرزقنا حسن التدبر والتفكر في آياته المسطورة والمنظورة في كتابه الكريم وكونه العظيم.

{وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
(٧) رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (٨)}
[آل عمران: ٧ - ٨].

والملاحَظ أن أكثر القضايا التي ضرب الله لها الأمثال هي: قضية التوحيد وتنزيه ذاته المقدسة عن الند والشريك والنظير ولا عجب في ذلك فهي القضية المحورية التي من أجلها أُرسل الرسل وأُنزل الكتب وخُلق الجن والإنس، ثم قضية إحباط عمل الكافرين وجعلها هباءً منثورا بسبب كفرهم وشركهم وتكذيبهم بالقضية الأولى، ثم قضية الدنيا وحقارتها وتفاهتها وسرعة ذبولها وزوالها؛

فلطالما كانت السبب الرئيس في تكذيبهم بالقضية الأولى وإحباط أعمالهم المبنية على الشرك وابتغاء الدنيا وما فيها من ذكر وثناء وسمعة ورياء.

وبعد، فما كان في هذا الكتاب من حق وصواب فمن الله وبتوفيقه، وما وقع فيه من زلل أو خطأ أو نسيان، فمن نفسي والشيطان أبرأ إلى الله تعالى منه وأعتذر عنه،

والله ولي التوفيق.

وختاماً أسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به وإياكم في الدنيا والآخرة وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المراجـع

أمثـــال القـــرآن

المراجع

القرآن الكريم.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
تفسيرفتح القدير للشوكاني.
أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي.
تفسير البغوي.
الدّر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.
تفسير الكشاف للزمخشري.
لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.
أسباب النزول للواحدي النيسابوري.
صحيح البخاري.
صحيح مسلم.
سنن أبي داود.
سنن الترمذي.
سنن النسائي.
سنن ابن ماجة.
مسند الإمام أحمد.
لسان العرب لابن منظور المصري.
القاموس المحيط للفيروزابادي.

❋ ❋ ❋